الدعوة والإصلاح لدى محمد الطاهر بن عاشور

دراسة تطبيقية على كتابيه: التحرير والتنوير، وأليس الصبح بقريب؟

د. عمر أبو المجد حسين قاسم مُحَمَّد النعيمي
كلية التربية – جامعة سلمان بن عبدالعزيز–المملكة العربية السعودية

المُلخَص

عملتُ في هذا البحث على دراسة الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور من حيث هو شخصية علمية كان لها أثر بارز في المغرب العربي وفي العالم الإسلامي أيضا، مستهدفا أبرز قضيتين عرفتا عنه؛ هما: الدعوة و الإصلاح؛ الأمر الذي اقتضى تقسيم البحث إلى تمهيد يترجم فيه للطاهر بن عاشور، ويُبَيَّن فيه أبرز معالم شخصيته الدعوية والإصلاحية. ثم مبحثٍ أوّلٍ يتناول العملية الدعوية ومفهوم الإصلاح، وقد كشف عن أبرز أطروحاته في هذا الجانب إلى جانب ما تفرد به سواء أكان في حكم الدعوة أم في بعض أساليب الدعوة. ثم مبحثٍ ثانٍ جاء زاخرا بتطبيقات الطاهر بن عاشور الإصلاحية في مجال التعليم، وكشف عن سعة أفقه، وقدرته التنظيرية، وجهوده التطبيقية. وأما الخاتمة فاشتملت على نتائج من أبرزها أهمية القامات العلمية من أمثال الطاهر بن عاشور في مجالي الدعوة والإصلاح، وضرورة تنظيم وتيسير سبل التعلم للجادين من طلبة العلم، بالإضافة إلى تقبل النقد والتصويب؛ لأن الخطأ مع العمل وارد. وأما التوصيات فأهمها: التريث وعدم الاستعجال عند انتقاد المصلحين، وقيام المشروعات الدعوية والإصلاحية على أساس تكاملي وجهود مشتركة.

الكلمات المفتاحية: دعوة، إصلاح، ثقافة، تعليم

مُقَدِمَةُ :

الدعوة والإصلاح عملان جليلان، يتصدى لهما كثير، ولا ينجح إلا البعض منهم، وما ذاك في تقديري إلا ناتج عن المكنة العلمية والشخصية، مع الإخلاص في الوجهة والغاية، ومثل هذه السمات تتأتى على وجه الكمال في الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فهم قادة الدعوة ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٦]، وسادة الإصلاح ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]، ثم يأتي من بعدهم أهل التقوى والصلاح إذا ما أعدوا للأمر عدته، وأمثلة ذلك في أمة مُحَمَّد ـ ﷺ ـ عديدة ابتداءً بالخلفاء الراشدين ثم الخليفة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وعموم العلماء المخلصين الذين زخرت بهم الأمة الإسلامية ـ رضوان الله عليهم ـ على امتداد عصورها الزاهرة.

ولما تهيأ لي الاطلاع على سيرة الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور رحمه الله وطائفة من مصنفاته وبخاصة: التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأليس الصبح بقريب، وقع في نفسي أنه من أولئك الذي ضربوا في الدعوة والإصلاح بسهم على قدر طاقتهم وجهدهم، وأحسبه – ولا أزكي على الله أحدا – في عداد المخلصين للإسلام وأهله.

كما وجدت لعلمه وسعيه أثرا بينًا في محيطه التونسي حتى أسماه الشيخ مُحَمَّد عبده (سفير الدعوة في جامع الزيتونة)، بل تجاوز ذلك إلى المحيط المغاربي وأقطار إسلامية أخرى، فتعززت لديَّ الدافعية للتعرف على أطروحاته الدعوية والإصلاحية، ثم إبرازها في بحث موجز رجاء أن ينتفع بها أقوام من المسلمين، وقصرت جهدي على كتابي (التحرير والتنوير) و (أليس الصبح بقريب) لما ظهر لي أنهما أكثر مصنفاته قربًا من موضوع البحث الذي جاء بحمد الله تعالى مشتملًا بعد المقدمة على:

التمهيد: ويتناول الطاهر بن عاشور، وشخصيته الإصلاحية.

المبحث الأول: معالم العملية الدعوية ومفهوم الإصلاح لدى الطاهر بن عاشور.

المبحث الثاني: التطبيقات الإصلاحية لدى الطاهر بن عاشور.

ثم الخاتمة المتضمنة لأهم النتائج والتوصيات.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تكمن مشكلة الدراسة في محاولة استقصاء الفكرة الدعوية والنمط الإصلاحي لدى الطاهر بن عاشور، من خلال أطروحاته التي بثها في مؤلفيه (التحرير والتنوير) و (أليس الصبح بقريب).

والتساؤلان الرئيسان اللذان اعتمدت عليهما هذه الدراسة هما:

ما المعالم الرئيسة للعملية الدعوية لدى الطاهر بن عاشور؟

وهل حقق الطاهر بن عاشور نجاحات عملية في تطبيقاته الإصلاحية؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى:

التعرف على معالم العملية الدعوية لدى الطاهر بن عاشور.

تحديد المفهوم الإصلاحي لدى الطاهر بن عاشور.

معرفة النمط التعليمي الذي ارتضاه الطاهر بن عاشور.

بيان أهم الإنجازات التي تحققت نتيجه جهود بن عاشور الإصلاحية.

الأهمية وسبب الاختيار:

يأمل الباحث أن يسهم البحث فيما يلي:

بيان معالم العملية الدعوية لدى الطاهر بن عاشور.

إبراز أحد النماذج الواقعية في الإصلاح المعاصر.

الإسهام في المجهودات الدعوية والإصلاحية، والتي يزداد نفعها كلما كثرت مصادرها؛ كالبستان الذي تزداد ثماره بتكاثر أشجاره.

الإفادة من الطرح الإصلاحي والتجربة الإصلاحية التي خاض غمارها الطاهر بن عاشور.

الدراسات السابقة:

حينما انقدحت فكرة البحث في خاطري، نفضت غبار أوراقي، واستدعيت معلوماتي، واستطلعت ما حفلت به المكتبات الإلكترونية وغيرها، فوجدت عناوين كثيرة درست الإمام الطاهر بن عاشور مفسرا ومقاصديًّا وعقديًّا وحديثيًّا، وخذ على سبيل المثال بعض العناوين التي وقفت عليها:

استدراكات الإمام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور في تفسيره على من سبقه في أسباب النزول، جمع ودراسة. وهي رسالة ماجستير أعدها الباحث سعيد مُحَمَّد عباش الشهراني.

المنحى البياني في تفسير التحرير والتنوير للشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، رسالة دكتوراه أعدها الباحث أحمد عزوز.

منهج الطاهر بن عاشور في أصول الاعتقاد، دراسة وتقويما. رسالة ماجستير أعدها الباحث مُحَمَّد بن حسن بن سعيد العمري.

أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير، رسالة دكتوراه أعدها الزميل الدكتور مشرف بن أحمد الزهراني، ثم طبعت بعد ذلك.

جهود الطاهر بن عاشور الحديثية في كتابه التحرير والتنوير، بحث أعده الزميل الدكتور سعيد بن نزال العنزي، مشاركا به في منتدى التجويد والقراءات بكلية الآداب جامعة شعيب الدكالي.

بالإضافة إلى العديد من الرسائل المسجلة في فهرس مكتبة كل من جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، وجامعة أم القرى، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكلها تتناول موضوعات متخصصة في التفسير أو الحديث أو الاعتقاد أو اللغة.

وأما العملية الدعوية والفكرة الإصلاحية لديه على وجه الخصوص فلم أقف – في حدود علمي – على رسالة مختصة بذلك، وإنما الحديث عنها في ثنايا ترجماته، وقد وقفت على حصيلة جيدة منها، حيث ترجم له معاصره الصادق الزمرلي في كتابه (أعلام تونسيون) بأسلوب شاعري، حتى إنها جاءت أقرب إلى الخواطر منها إلى الترجمة العلمية المألوفة، واختزلت جهوده وأعماله في أسطر قليلة.

وأفرد الدكتور بلقاسم الغالي كتابا في ترجمة الشيخ ـ رحمه الله ـ عنون له بـ (من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، كتبه في ٢٦٤ صفحة، وكان حظ إنجازات

الشيخ خمس صفحات (٥٨-٦١). ولم يزد حديثه في جانب إصلاحاته عن نصف صفحة.

كما ترجم له الدكتور مُحَمَّد الطاهر الميساوي في مقدمة تحقيقه كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية) للطاهر بن عاشور، سَوّدَ تحت عنوان (ابن عاشور وهموم الإصلاح) عشرين مِئِيَضّة من الصفحات (٢٨–٤٨) قدم فيها معلومات نافعة، وقارب في التاريخ وباعد، واقتبس بعض أفكار الشيخ الإصلاحية من كتابه (أليس الصبح بقريب)، ولكن بعد مطالعاتي عرفتُ أنها قليلة جدا بالنسبة لما دونه الشيخ نفسه في ذلك الكتاب.

وترجم له أيضا مُحَمَّد محفوظ في كتابه (تراجم المؤلفين التونسيين) في الجزء الثالث

(ص ٢٦٤ ومابعدها ترجمة رقم ٣٢٣)، وفيها حديث عن حياته وأولياته وأعماله وتوجهاته الإصلاحية.

وهي بالمجمل كتابات عامة ومتفرقة، فيها نفع وفائدة، إلا أن هذا البحث يركز على الدعوة، وعلى الإصلاح من الجانب التطبيقي لدى الشيخ الطاهر بن عاشور، وهذا موطن الجدة فيه.

منهج البحث: اعتمد الباحث على المنهج التاريخي؛ لأنه «يساعد في دراسة الشخصيات التاريخية حيث يتتبع الباحث تأثيرها في مجتمعاتها المحلية والعالمية»(الكندري وعبدالدائم ١٤١٣هـ). والمنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، لتحديد رؤى الشيخ الطاهر بن عاشور وتطلعاته وأعماله، ثم تحليلها للتوصل إلى النتائج المرجوة من البحث.

التمهيد

مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، وشخصيته الإصلاحية

آثرت البدء بهذا التمهيد ليكون بمثابة التوطئة لما يأتي من المباحث، ويشتمل على جانبين هما:

الأول: ترجمة الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور:

ولد الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد الشاذلي بن عبدالقادر بن مُحَمَّد بن عاشور بمدينة المرسى الضاحية الحالمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمال تونس العاصمة عام ١٢٩٦ للهجرة، فبادر جدّه لأمه الوزير مُحَمَّد العزيز بوعتور باحتضانه ورعايَتِه.

وفي مقتبل عمره حفظ القرآن الكريم، وجمْلة من متون علوم العربية والشريعة، الأمر الذي أهله حينما بلغ الرابعة عشرة من عمره للالتحاق بجامع الزيتونة (الجامع الأعظم) وأمضى فيه سبع سنوات(الريس ١٤٠٩هـ).

ثم نَهل من علوم النحو والصرف، والبلاغة، والفقه وأصوله، وعلم الكلام، والمنطق، والسيرة، والتاريخ، مع إلمامات يسيرة بالطب كانت ثمرة مطالعاته وقراءاته الإضافية(الميساوي ٢٠٠١م)، وفي ذلك ما يبرهن على تعلقه بالعلم وعنايته به حتى نبغ فيه، بل وصار أحد أركان النهضة العلمية والإصلاحية المعاصرة بتونس، وامتدت آثاره الإيجابية إلى مختلف بلاد العالم الإسلامي عبر تلاميذه ومؤلفاته التي لا تزال محل اهتمام العلماء وطلبة العلم إلى وقتنا الحاضر(الغالي ١٩٩٦م).

وبعد ذلك انتقل إلى ميدان العمل فشغل وظائف بجامع الزيتونة أبرزها مشيخة الجامع الأعظم وفروعه، وبعد استقلال تونس عين عميدا للجامعة الزيتونية عام ١٩٥٦م وبقي كذلك حتى عام ١٩٦٢ م تاريخ إلغاء الجامعة الزيتونية وإلحاقها بجامعة تونس.

ومن أعماله المهمة أيضا: رئاسة الإفتاء، ورئيس (كبير) الشورى. هذا بالإضافة إلى حصوله على لقب شيخ الإسلام المالكي، وعضويته بمجمعي اللغة العربية الدمشقي والبغدادي( ).

من أبرز السجايا الخُلُقيّة التي اتصف بها الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه كان: متواضعا، مترفعا عن الصغائر والدَّنايا، مع صبرٍ، وقوة احتمالٍ، وعلو همةٍ، واعتزاز بالنفس، كما كان عفيف اللسان والقلم، طيب المعاشرة، نَقي الذهن، قويّ الحافظة، يحترم مخالفيه، ويتسع صدره لانتقاداتهم.. هذا بالإضافة إلى خصال أخرى سترد في المباحث القادمة ـ بإذن الله ـ (الغالي ١٩٩٦م، الطباع ٢٠٠٥م، الزهراني ١٤٣٠هـ).

ومن الجوانب المدللة على تأثيرات الشيخ الطاهر بن عاشور الإيجابية ما يأتي:

الجانب الأول: التلاميذ، فلقد تخرج على يديه علماء كبار من أمثال: الشيخ عبدالحميد بن باديس، والشيخ الدكتور مُحَمَّد الحبيب ابن

الخوجة، وكذا ابنه الشيخ مُحَمَّد الفاضل بن عاشور (الغالي ١٩٩٦م، الزهراني ١٤٣٠هـ، أبو حسان ١٤٣٠هـ).

والجانب الثاني: المؤلفات، وهي كثيرة وافرة، أهمها: التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأليس الصبح بقريب، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام(الغالي ١٩٩٦م، الزهراني ١٤٣٠هـ، أبو حسان ١٤٣٠هـ).

وبعد عمر حافل بالعطاء انتقل الشيخ إلى جوار ربه يوم الأحد ١٣ رجب ١٣٩٣هـ.

الثاني: الشخصية الإصلاحية للشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور:

يمكن تحديد أبرز معالم الشخصية الإصلاحية له فيما يأتي:

١- الطموح:

الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور وأمثاله لا يسلمون من الانتقاد والتجريح(ابن باديس ١٣٥٥هـ، الغالي ١٩٩٦م)، إلا أن مقتضيات الطموح تتطلب عدم التوقف عند ذلك، بل المضي قُدُما نحو الغاية التي يطمح لتحقيقها، وهو النهج الذي انتهجه الشيخ الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إذ بقي متطلعا نحو التغيير والإصلاح الإيجابي– وفق اجتهاده -، مع سبق إعداد العدّة العلمية لذلك، الأمر الذي جعله مؤهلا لتولي المسؤولية؛ ومن ثم تحويل الطموحات التي يرنو إليها إلى واقع ملموس في تلك المؤسسات التي تولّى إدارتها وبخاصة جامع الزيتونة، يقول الزمرلي: «ولقد اقتنع جمهور المترددين على المحكمة الشرعية بما كان يمتاز به من قيمة أخلاقية وكفاءة قانونية، ذلك القاضي الشاب الذي كان يجمع بين مهامه القضائية الشرعية المضنية وبين مهمته كعضو مستشار بالمحكمة العقارية المختلطة...كان لا يبالي بالتعب، ولا يتخلف عن أية جلسة من جلسات المحكمة... وفي آخر الأمر استرعى ذلك التفاني وتلك الجهود المبذولة في خدمة العدالة انتباه السُّلَط العليا التي قررت استغلال تلك الكفاءة النادرة لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة»(الزمرلي ١٩٨٦م).

ونتيجة منطقية لذلك أمكنه تقلد مناصبَ رسمية، أبرزها: منصب النائب الأول للحكومة لدى النَّظارة العلميَّة بجامع الزيتونة عام ١٣٢٥هـ. ومنصب شيخ الجامع الأعظم (الزيتونة) مرتين: الأولى عام ١٣٥١ هـ، والثانية عام ١٣٦٤ هـ.

وهذه المناصب وإن كانت تدور في فَلَك (القيادة الوسطى) إلا أن الشيخ الطاهر بن عاشور أمكنه من خلالها تطبيق شيء من طموحاته الإصلاحية، وبخاصة في جامع الزيتونة كما سيأتي.

٢- القدرة على القيادة:

لقد تهيأت للشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور ظروف اجتماعية أسهمت كثيرا في تكون الشخصية القيادية لديه، فهو من أسرة راقية اجتماعيا وعريقة علميا، تقلد بعضهم مناصب قيادية، فمحمد الطاهر بن عاشور (الجد) تقلد مناصب القضاء والإفتاء والتدريس والإشراف على الأوقاف الخيرية والنظارة على بيت المال(الغالي ١٩٩٦م)، ووالده الشيخ مُحَمَّد بن عاشور ترأّس جمعية الأوقاف، وجده لأمه مُحَمَّد العزيز بوعتور كان وزيرا للمالية التونسية، ثم وزيرا للقلم، ثم الوزير الأكبر(محفوظ ١٩٩٤م).

وترافق ذلك مع رغبة ذاتية للإنجاز والتطوير ظهرت علائمها مبكرا، يقول الصادق الزمرلي: «...ذلك الصبي الموهوب الذي اجتاز بخطى سريعة مراحل التعليم التقليدي السائد في عصره، وارتقى وهو لا يزال شابًّا إلى خطة مدرّس ثم أستاذ»(الزمرلي ١٩٨٦م).

ويبدو أن نشأته في قصر جده الوزير الأكبر مُحَمَّد العزيز بوعتور أطلعته على كثير من قضايا السياسة ومشاريع الإصلاح التي ظهرت في تونس قبل الحماية الفرنسية وبعدها... (عبدالسلام ١٤٠٧هـ)، الأمر الذي صقل شخصيته القيادية منذ بواكير النشأة.

٣- وضوح الرؤية:

تمثلت الرؤية الواضحة عنده في معرفته للطريق الذي يجب أن يسلكه وصولا إلى الإصلاحات التي طمح إليها وحقق جزءًا جيدا منها، وفي ذلك قال عن نفسه: «قد كان حدا بي حادي الآمال وأملى عليَّ ضميري، من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربي الإسلامي الذي أشعرتني مدة مزاولته متعلما ومعلما بوافر الحاجة إلى الإصلاح الواسع النطاق؛ فعقدت عزمي على تحرير كتاب في الدعوة إلى ذلك وبيان أسبابه...في ثلاثة أصياف، وعنونته: أليس الصبح بقريب؟»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). ومما قيده في هذا الكتاب من أمور تبرهن على وضوح رؤيته:

قناعته بأن التعليم الصحيح يسمو بالأمة ويُعْلي شأنَها، والتعليم الفاسد أشد خطرا عليها من الجهالة، بل تشقى به الأمة كلها(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). وفي ذلك يقول: «فلابد للناظر في أمر التعليم

العربي الإسلامي من صرف غاية حذقه ومواهبه إلى وضع برامج تحقق حياة هذا التعليم على حالة كاملة، وتحقق مقاصد طالبيه في معترك حياة عصرهم، وتحقق مقاصد الأمة من خريجي هذا التعليم »(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

معرفته بأصناف العلوم ومراميها وثمراتها، فالعلوم الحاجية تخدم الحياة الاجتماعية، وتنتج للأمة قادة في دينها ودنياها، أما العلوم الأدبية فتخدم الكمال النفساني(ابن عاشور ١٤٢٧هـ) وتورث الثراء المعرفي واستقامة اللسان، قال ـ رحمه الله ـ: «نبحث عن تعليم يفيد ترقية المدارك البشرية، وصقل الفِطَر الطيبة لإضاءة الإنسانية وإظهارها في أجمل مظاهرها، فيخرج صاحبها عن وصف الحيوانية البسيط وهو الشعور بحاجة نفسه خاصة إلى ما يفكر به في جلب مصلحته ومصلحة غيره بالتحرز عن الخلل والخطأ بقدر الطاقة، وبحسب منتهى المدنية في وقته»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

نظرته الشمولية الواضحة لحقيقة العلوم وأغراضها، وفي ذلك يقول: «ليس العلم رموزا تُحل، ولا كلماتٍ تُحفظ، ولا انقباضا وتكلفا، ولكنه نورُ العقلِ واعتداله، وصلوحيته لاستعمال الأشياء فيما يحتاج إليه منها؛ فهو استكمال النفس، والتطهر من الغفلة، والتأهل للاستفادة والإفادة، وما كانت العلوم المتداولة بين الناس إلا خادمةً لهذين الغرضين وهما: ارتقاء العقل لإدراك الحقائق، واقتدار صاحبه على إفادة غيره بما أدركه هو»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

٤- الشجاعة:

ظهرت مخايل الشجاعة في شخصية الطاهر بن عاشور في طرح مشروعه الإصلاحي الذي جعله نقطة تجاذب بين طرفين: الطرف التقليدي المناهض له، والذي جعل من جريدة (الصباح) و (الزهراء) و (الوزير) منبرًا لمهاجمته وانتقاده والتحريض ضد مشاريعه الإصلاحية، والطرف المساند والمشجع له والذي جعل من جريدتي (النهضة) و (الصوت التونسي) منبرين للإعلاء من قدر الطاهر بن عاشور والإشادة بأعماله ومجهوداته وتبني مشروعه الإصلاحي(الغالي ١٩٩٦م).

وحينما باشر إصلاح جامع الزيتونة انتصبت له سلطة الاحتلال الفرنسي وبعض الأحزاب السياسية محاولة تعطيلها بشتى الطرق، وكان من أهمها العمل على عرقلة إنشاء فروع جامع الزيتونة، وبلغ الأمر بالمقيم الفرنسي (شارل سوماني) أن كتب للداخلية الفرنسية قائلا: «رغم منح بعض الترضيات للرأي العام الإسلامي، فإنه لا يمكن السماح طبعا بتحقيق إصلاح يمكن أن يشكل خطرا بالنسبة إلى السياسة التي تنتهجها فرنسا بتونس... فلا يقتضي أبدا أن نجعل من جامع الزيتونة معهدا تعليميا مجهزا ومنظما حسب الطرق الحديثة»(الميساوي ٢٠٠١م)، ولكنه تجاوز ذلك بمعاونة المخلصين من أبناء الجامع.

وهنالك موقفان يجليان خصلة الشجاعة لدى الطاهر بن عاشور وهما:

الأول: حدثت اضطرابات داخل جامع الزيتونة عام ١٩٥٠م قام بها بعض الطلبة نتيجة الممارسات السلبية التي كانت تقوم بها الوزارة التونسية (رئاسة الوزراء بالمسمى الحالي)، وكان الطاهر بن عاشور متمسكا بمشروعه الإصلاحي، ومُصِرًّا على عدم الاستجابة للوزارة وللأحزاب السياسية المؤيدة لها، وبخاصة حينما طُلب منه طرد الطلبة الذين قاموا بتلك الاضطرابات وهم من أعضاء (صوت الطالب الزيتوني)، وتعَرَّض إثر ذلك للإبعاد عن مشيخة جامع الزيتونة في العام نفسه(عاشور ١٩٩١م).

والثاني: في العام ١٩٦١م ويتعلق بدعوة الحبيب بورقيبة – رئيس تونس آنذاك– العمالَ إلى الإفطار في رمضان بذريعة الحفاظ على الإنتاج والتخلص من الكسل والخمول، ثم طَلَبِه من الشيخ الطاهر بن عاشور أن يفتي بما يوافق ذلك، ولكن الشيخ رحمه الله أفتى بخلاف مراد بورقيبة، فبين حكم صيام رمضان وأنه أحد أركان الإسلام التي أمر الله ـ تعالى ـ بها، وأن الإفطار فيه لا يجوز إلا بمسوغات معتبرة في الشرع، وليست منها تلك المزاعم(الغالي ١٩٩٦م).

٥- التجديد المنضبط:

الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور من أولئك الذين يتمتعون بعقلية تجديدية ساعدته على قبول التطوير التنظيمي؛ الأمر الذي جعله يشعر مبكرًا بضرورة إصلاح التعليم إصلاحًا واسع النطاق(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، ولم يجد ضيرًا في الإفادة من التطور التنظيمي والتقني لدى الدول الأوربية في المجال التعليمي، متجاوزا بذلك التفكير النمطي الرافض لمعطيات الغرب المدنية، ولعله كان بذلك مقتنعا بفكرة الوزير خير الدين باشا الداعية إلى منهج يوفق بين تمسك المثقفين المسلمين بالقيم الإسلامية من جهة، واقتناعهم بضرورة الاقتباس من نظم الأوربيين من جهة أخرى(عبدالسلام

١٤٠٧هـ)، ومن ذلك على سبيل المثال تشجّعه لفكرة مراقبة العلوم وتنقيحها بواسطة المجامع العلمية (الأكاديميات التنقيحية) مثل أكاديمية (ديلا كروشكا) الإيطالية التي أنشأها الشاعر (غراتسيني) لنخل اللغة من كل ما يستهجن(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

٦- التأثير في الآخرين:

تعددت الشهادات المصرحة بقدرة الشيخ الطاهر بن عاشور على التأثير في من يتصل بهم من قيادات الدولة، وكذا في تلاميذه وفي المؤسسات التي تولى إدارتها، ومن ذلك قول الشيخ عبدالحميد بن باديس: «عرفت هذا الأستاذ في جامع الزيتونة، وهو ثاني الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم، والتحقيق في النظر، والسمو والاتساع في التفكير... فاتصلت بهما عامين كاملين، كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر،... وإن أنس فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه، فقد حببني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبث فيّ روحًا جديدة في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام»(ابن باديس ١٣٥٥هـ). ولما عين مرة ثانية شيخًا لجامع الزيتونة وفروعه عام ١٣٦٤هـ قوبلت عودته بارتياح وبحماسة عارمة من المثقفين التونسيين عموما، ومن الأوساط الزيتونية، وخصوصًا في فروع سوسة والقيروان وصفاقس (محفوظ ١٩٩٤م).

المبحث الأول

المعالم الدعوية ومفهوم الإصلاح لدى الطاهر بن عاشور

بدت مظاهر اهتمام الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور بالدعوة وما يتعلق بها إبان تفسيره للآيات الكريمة ذات الصلة بها، وقبل الشروع في ذكر ما وقفت عليه من معالم دعوية لديه ؛ أبتدئ بتعريف الدعوة وما ورد فيه من أقوال:

أ) التعريف اللغوي:

أصل (دعا) في اللغة: أن تميل الشيء إليك بصوت أو كلام يكون منك(ابن فارس ١٣٩٩هـ)، ولهذه الكلمة ومشتقاتها معان مجازية عديدة؛ منها: الاستغاثة، والتسمية، والتمني، والسَّوْق، والعبادة، والعذاب والمكروه، والنِّداء، والتُّدْبة، والنِّسْبَة(الجوهري ١٤٠٧هـ، ابن منظور ١٤١٤هـ، الزبيدي ١٣٠٦هـ).

و يراد بـ(الدعوة) في اللغة: الحَلف، والدعاء إلى الوليمة(الجوهري ١٤٠٧هـ).وأما ﴿دعوة الحق﴾[الرعد: ١٤] ففيها قولان: أحدهما كلمة التوحيد وهي شهادة أن لا إله إلا الله. والثاني أن الله ـ عزّ وجلّ ـ هو الحق، فمن دعاه دعا الحق(ابن الجوزي ١٤٢٢هـ، ابن كثير ١٤٢٠هـ).

ويراد بـ(الداعية): المؤذن، وصريخ الخيل عند الحرب، واللَّبَن الذي يترك في الضِّرْع ليدعو ما وراءه (الفيروزابادي ١٤٢٦هـ، الجوهري ١٤٠٧هـ،الزبيدي ١٣٠٦هـ)، وكذا الذي يدعو الناس إلى دين أو بدعة (ابن منظور ١٤١٤هـ)، ويدخل في هذا كل داعية إلى فكر أو مذهب أو حزب أو طائفة... وهلم جرًا.

أ) التعريف الاصطلاحي:

تناول العديد من العلماء المعاصرين (الدعوة) بالتعريف اصطلاحا، فجاء بعضها متجها للعملية الدعوية، وجاء بعضها الآخر مركزا على الدعوة من حيث هي علم ذو أصول وقواعد. وعليه فإننا أمام شقين تنبه لهما أستاذي الفاضل د. أبوالفتح البيانوني، وهما: التعريف الاصطلاحي للدعوة، والتعريف الاصطلاحي لعلم الدعوة.

وبما أن الدراسة في هذا المبحث تُعنى بجهود الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله الإصلاحية من حيث هو أحد أعلام الدعوة المعاصرين؛ لذا تتبعت أقواله التي نصت على الدعوة فوجدتها تصب في اتجاه (العملية الدعوية)؛ لذا سأقتصر على ذكر تعريفات للدعوة ذات صلة بهذا الاتجاه، والتي منها:

تعريف الشيخ علي محفوظ وهو: «حث الناس على الخير والهدى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل»(محفوظ ١٣٧١).

وتعريف الشيخ آدم عبدالله الألوري وهو: «صرف أنظار الناس وعقولهم إلى فكرةٍ أو عقيدةٍ، وحثهم عليها»(الألوري ٢٠١٢م). وهذا تعريف عام يعكس المعنى اللغوي، ولا يتحدد بالدعوة الإسلامية.

وتعريف الدكتور مُحَمَّد أبو الفتح البيانوني وهو: «تبليغ الإسلام للناس، وتعليمهم إياه، وتطبيقه في واقع الحياة»(البيانوني ١٤١٥هـ). وهذا التعريف في تقديري وجيز جيد يستوعب أبرز

عناصر العملية الدعوية، إلا أنه لو تحدد بالقدرة والوُسع لكان أوعب. والله أعلم.

ثانيا: معالم العملية الدعوية لدى الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير:

ضمن الشيخ الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير العديد من المعالم الدعوية إبان تفسيره الآيات القرآنية الكريمة ذات الصلة المباشرة بالعملية الدعوية، ولعل من أبرز تلك المعالم ما يأتي:

١- حكم الدعوة:

العلماء في حكم الدعوة قسمان: قسم يقول بالوجوب العيني، وقسم يقول بالوجوب الكفائي( )، إلا أنني رأيت للشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور رأيًا أحسبه متفردًا به، وذلك أنه قسم الدعوة إلى مرحلتين: الأولى في صدر زمان البعثة المحمدية، والثانية بعد ذلك، وتبعا لذلك اختلف في اجتهاده في حكم الدعوة فقال: «وَقَدْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي صَدْرِ زَمَانِ الْبِعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَاجِبًا عَلَى الْأَعْيَانِ لِقَوْلِ النَّبِي : «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»( )، أَيْ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ. ثُمَّ لَمَّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ وَبَلَغَتْ دَعْوَتُهُ الْأَسْمَاعَ صَارَتِ الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ وَاجِبًا عَلَى الْكِفَايَةِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ الْآيَةَ. [آلِ عِمْرَانَ ١٠٤]» (ابن عاشور ١٩٨٤م). وأكد مذهبه في القول بالوجوب على الكفاية بعد إيراده قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٢] الْآيَةَ. فقال: «وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ بِالضَّمِيرِ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ تَبَعًا لِكَوْنِ الْمُخَاطَبِ بِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّاهُمْ أَيْضًا، كَانَتْ (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ لَا مَحَالَةَ، وَكَانَ الْمُرَادُ بِالْأُمَّةِ الطَّائِفَةَ؛ إِذْ لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ مَأْمُورِينَ بِالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَلْ يَكُونُ الْوَاجِبُ عَلَى الْكِفَايَةِ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ ابْنُ عَطِيَّةَ، وَالطَّبَرِيُّ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْمَأْمُورُ جَمَاعَةً غَيْرَ مُعَيَّنَةٍ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ حُصُولُ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي فُرِضَ عَلَى الْأُمَّةِ وُقُوعُهُ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وقوله بالكفاية متفق مع عدد كبير من العلماء القائلين به، إلا أن قوله بالوجوب العيني في صدر زمان الدعوة ـ مما لم يسبق إليه في حدّ علمي، وربما استند في ذلك إلى صيغة الأمر في (بَلّغوا) من حيث إنها تفيد الوجوب، بالإضافة إلى تفسير (الآية) بالعِلم الذي جاء به النبي كما هو قول طائفة من العلماء(محفوظ ١٣٧١، الوكيل ١٩٨٦م، الخطيب ١٤٠٢هـ)، إلا أن عليه مأخذين هما:

الأول: تحديد الفترة الزمنية للوجوب العيني والاستدلال عليه بهذا الحديث، والإشكال هنا أن عبدالله بن عمرو بن العاص – راوي الحديث – لم يكن قد ولد حينما بعث النبي ( )، ومقتضاه أن الحديث مدني، بينما صدر زمان البعثة يجب أن يكون مكيا، فالاستدلال بالحديث هنا في غير محله.

الثاني: حَمْل الطاهر بن عاشور للأمر في (بَلّغوا) على الوجوب العيني غير متفق عليه، بل هو عند بعض العلماء على الكفاية، فقد أخرج ابن حبان عن أبي حاتم الرازي أنه قال: «قَوْلُهُ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» أَمْرٌ قَصَدَ بِهِ الصَّحَابَةَ، وَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةِ هَذَا الخطابِ مَنْ كَانَ بِوَصْفِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي تَبْلِيغِ مَنْ بَعْدَهُمْ عَنْهُ ، وَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إِذَا قَامَ الْبَعْضُ بِتَبْلِيغِهِ سَقَطَ عَنِ الْآخَرِينَ فَرْضُهُ، وَإِنَّمَا يَلْزَمُ فَرْضِيَّتَهُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ مَتَى امْتَنَعَ عَنْ بَثِّهِ، خَانَ الْمُسْلِمِينَ، فَحِينَئِذٍ يَلْزَمُهُ فَرْضُهُ»( ).

٢- غاية الدعوة:

نبه الشيخ الطاهر بن عاشور إلى أن الهداية هي المراد الأساس من الدعوة(ابن عاشور ١٩٨٤م). ومن مقاصدها إصلاح الأمة بأسرها، أمة الدعوة وأمة الإجابة، فيتم إصلاح الكفار «بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَنَبْذِ الْعِبَادَةِ الضَّالَّةِ وَاتِّبَاعِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م)، و يتم «إِصْلَاحُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوِيمِ أَخْلَاقِهِمْ وَتَثْبِيتِهِمْ عَلَى هُدَاهُمْ وإرشادهم إِلَى طرق النَّجَاحِ وَتَزْكِيَةِ نُفُوسِهِمْ» (ابن عاشور ١٩٨٤م).

ومن مقتضيات الهداية والإصلاح أن تكون عامة تستغرق المكلفين في كل زمان ومكان، بمقتضى كونها ﴿ذكرى للعالمين﴾، قال الطاهر بن عاشور: «وَجَعَلَ الدَّعْوَةَ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ؛ لأنّ دَعوته عَامَّةٌ لِسَائِرِ النَّاسِ. وَقَدْ أَشْعَرَ هَذَا بِأَنَّ انْتِفَاءَ سُؤَالِ الْأَجْرِ عَلَيْهِ لِسَبَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ذِكْرَى لَهُمْ وَنُصْحٌ لِنَفْعِهِمْ فَلَيْسَ مُحْتَاجًا لِجَزَاءٍ مِنْهُمْ.

ثَانِيهِمَا: أَنَّهُ ذِكْرَى لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَلَيْسَ خاصًّا بهم» (ابن عاشور ١٩٨٤م).

٣- أساليب الدعوة:

الأسلوب في اللغة – كما قال الأصمعي – الطريق المستوي. وعند الجوهري: الأسلوب: ضرب من ضروب العلم. ويقال أيضا: أخذ في أساليب من القول: أي ضروب منه(ابن سيده ١٤١٧هـ، زين الدين الرازي ١٤٢٠هـ). وقال الكفوي: «كل شَيْء امْتَدَّ فَهُوَ

أسلوب»(الكفوي ١٤١٩هـ). لذا يمكن تعريف أسلوب الدعوة بأنه: الطريق التي يسلكها الداعية أو الكيفية التي يختارها لتبليغ الدعوة. وأبرز الأساليب التي تطرق إليه الشيخ الطاهر بن عاشور ما يأتي:

١- التبليغ مصحوبًا بالتزكية؛ عملاً بقوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، فالتلاوة تتضمن التبليغ القولي والتطبيق العملي؛ لأنها تفيد تتابع القراءة، كما أن معناها في الأصل: الاتباع(ابن دريد ١٩٨٧م، ابن فارس ١٣٩٩هـ)، ولازمه التطبيق العملي، وهو بلا أشك أدعى لتزكية المدعوين الذين يراد حملهم على اتباع ما يصيرون به طاهرين أتقياء؛ قال الطاهر بن عاشور: «وَابْتُدِئَ بِالتِّلَاوَةِ لِأَنَّ أَوَّلَ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ بِإِبْلَاغِ الْوَحْيِ، وَثُنِّيَ بِالتَّزْكِيَةِ؛ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الدَّعْوَةِ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الرِّجْسِ الْمَعْنَوِيِّ وَهُوَ الشِّرْكُ، وَمَا يَعْلَقُ بِهِ من مساوئ الْأَعْمَالِ وَالطِّبَاعِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وكافة المدعوين مقصودون بالتزكية، إلا أن ضلالة بني إسرائيل حينما بعث النبي ﷺ كانت مركّبة؛ لذا تطلب الأمر تذكيرًا بالنعم وتخويفًا من العاقبة في مقام واحد، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[البقرة: ١٢٢-١٢٣]، قال الطاهر بن عاشور: «فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ تَذْكِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالنِّعَمِ وَالتَّخْوِيفِ، تَحْرِيضُهُمْ عَلَى الْإِنْصَافِ فِي تَلَقِّي الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّجَرُّدِ مِنَ الْمُكَابَرَةِ وَالْحَسَدِ وَتَرْكِ الْخُطُوطِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِنَيْلِ السَّعَادَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

٢- إبانة الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها(ابن عاشور ١٩٨٤م، النحاس١٤٢١هـ)، وقد اجتمعت كل تلك المعاني في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، قال الزركشي: «هَذِهِ ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ اشْتَمَلَتْ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الرِّسَالَةِ»(الزركشي ١٣٧٦هـ).

وأصل (الصدع): الشّق، وانفراجٌ في الشيء(الجوهري ١٤٠٧هـ، ابن فارس ١٣٩٩هـ)، وقال الراغب الأصفهاني: «الصَّدْعُ: الشّق في الأجسام الصّلبة كالزّجاج والحديد ونحوها... وعنه استعير: صَدَعَ الأمرَ؛ أي: فَصَلَهُ»(الأصفهاني ١٤١٢هـ). ومجمل أقوال العلماء في معنى: ﴿فَاصْدَعْ﴾ تدور حول: الإظهار والإمضاء والإعلام والفَرْق بين الحق والباطل(البغوي ١٤١٧هـ).

٣- مواصلة الدعوة واستغراق أفراد المدعوين، واستدل الطاهر بن عاشور لهذا الأسلوب بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٧٥] ثم قال: «إِنَّمَا نُبِينَا عَنِ الطَّمَعِ فِي إِيمَانِهِمْ لَا عَنْ دُعَائِهِمْ لِلْإِيمَانِ؛ لِأَنَّنَا نَدْعُوهُمْ لِلْإِيمَانِ وَإِنْ كُنَّا آيِسِينَ مِنْهُ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ عَلَيْهِمْ وَفِي الْآخِرَةِ أَيْضًا، وَلِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْحَقِّ قَدْ تُصَادِفُ نَفْسًا نَيِّرَةً فَتَنْفَعُهَا، فَإِن استبعاد إِيمَانه حُكْمٌ عَلَى غَالِبِهِمْ وَجَمْهَرَتِهِمْ، أَمَّا الدَّعْوَةُ فَإِنَّهَا تَقَعُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

ثم أكد معنى المواصلة والاستمرارية في الدعوة بتنبيه آخر إلى أن المراد (بالإعراض عن المشركين) هو الإعراض عن مكابراتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم ثم قال: «فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمر رَسُوله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِقَطْعِ الدَّعْوَةِ لِأَيِّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ، وَكُلُّ آيَةٍ فِيهَا الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّمَا هُوَ إِعْرَاضٌ عَنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَذَاهُمْ، أَلَا تَرَى كُلَّ آيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ تَلَتْهَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدْعُو الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الشِّرْكِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سورة النساء: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النِّسَاء ٦٣]» (ابن عاشور ١٩٨٤م).

بالإضافة إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الْأَعْرَاف ١٥٨] المؤكّد على استقصاء المدعوين قال الطاهر بن عاشور: «وَتَأْكِيدُ الْخَبَرِ بـ (إِنَّ) بِاعْتِبَارِ أَنَّ فِي جُمْلَةِ الْمُخَاطَبِينَ مُنْكِرِينَ وَمُتَرَدِّدِينَ، اسْتِقْصَاءٌ فِي إِبْلَاغِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِمْ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وبما أن الاستمرارية في الدعوة تقتضي سلوكا مخصوصا من الدعاة؛ فقد لفت القرآن الكريم الأنظار إليها، ومن أبرز ما توقف عنده الشيخ الطاهر بن عاشور من ذلك:

أ) الثبات على الدعوة وعدم استعجال النتائج، جاءت الدلالة عليه في قوله ـ تعالى ـ مخاطبا موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُونُس: ٨٩]، والأمر بالاستقامة يعني المضيّ في الدعوة والثبات عليها وعدم استعجال تحقُّق وعدِ الله تعالى(الطبري ١٤٢٠هـ، الزمخشري ١٤٠٧هـ، ابن كثير ١٤٢٠هـ)، قال الطاهر بن عاشور: «وَمِنَ الِاسْتِقَامَةِ أَنْ يَسْتَمِرَّا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ وَلَا يَضْجَرَا»(ابن عاشور ١٩٨٤م). وقال القشيري: «الاستقامة فى الدعاء ترك الاستعجال فى حصول المقصود»(القشيري ١٩٧٠م).

ب) الحرص على الدعوة والمبالغة فيها، ولا يتحقّق ذلك للداعية إلا إذا كان إيمانه عميقا بالإسلام الذي يدعو إليه، فحينئذٍ يوقن بضرورته، وحاجة الناس إليه(البيانوني ١٤١٥هـ)؛ لذا جاء الإرشاد الإلهي للنبي ﷺ بأن لا يتأثر بكيد الكافرين ومكرهم، بل يقابلهم بجد ومجاهدة ترد كيدهم وتحقق مقاصد الدعوة، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، وفي معنى هذه الآية يقول الطاهر بن عاشور: «وَبَعْدَ أَنْ حَذَّرَهُ مِنَ الْوَهَنِ فِي الدَّعْوَةِ أَمَرَهُ بِالْحِرْصِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهَا، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ، وَهُوَ الِاسْمُ الْجَامِعُ لِمُنْتَهَى الطَّاقَةِ. وَصِيغَةُ الْمُفَاعَلَةِ فِيهِ لِيُفِيدَ مُقَابَلَةَ مَجْهُودِهِمْ بِمَجْهُودِهِ فَلَا يَهِنُ وَلَا يَضْعُفُ، وَلِذَلِكَ وُصِفَ بِالْجِهَادِ الْكَبِيرِ، أَيِ الْجَامِعِ لِكُلِّ مُجَاهَدَةٍ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

ت) عدم التأثر بافتراءات المبطلين من أهل الشرك وغيرهم: فقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥] – كما يرى الطاهر بن عاشور – مُتَضَمِّنٌ «تَثْبِيتَ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى الدَّعْوَةِ وَأَنْ لَا يُؤَيِّسَهُ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ لَهُ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النَّحل: ١٠١] وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النَّحل: ١٠٣] وَأَنْ لَا يَصُدَّهُ عَنِ الدَّعْوَةِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَهْدِي الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ. ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَتْرُكُوا حِيلَةً يحسبونها تثبط النّبي ﷺ عَنْ دَعْوَتِهِ إِلَّا أَلْقَوْا بِهَا إِلَيْهِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وهذا الأسلوب – أعني مواصلة الدعوة واستغراق أفراد المدعوين – نابع من عموم رسالة النبي ﷺ الذي اختص بها دون غيره من الرسل ـ عليهم السلام ـ ولأجل هذا العموم كان القرآن الكريم الذي أنزل عليه ﷺ ذكرى للعالمين كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]، قال الطاهر بن عاشور: «وَجَعَلَ الدَّعْوَةَ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ؛ لأنّ دعوته ﷺ عَامَّةٌ لِسَائِرِ النَّاسِ. وَقَدْ أَشْعَرَ هَذَا بِأَنَّ انْتِفَاءَ سُؤَالِ الْأَجْرِ عَلَيْهِ لِسَبَبَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ذِكْرَى لَهُمْ وَنُصْحٌ لِنَفْعِهِمْ فَلَيْسَ مُحْتَاجًا لِجَزَاءٍ مِنْهُمْ، ثَانِيهِمَا: أَنَّهُ ذِكْرَى لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَلَيْسَ خاصًّا بهم»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

٤- الإفادة من الفرص الدعوية المواتية، والشرط هنا أن يدرك الداعية أن هذه فرصة فيبادر إلى الإفادة منها وتوظيفها لصالح الدعوة، وتنظيم العمل الدعوي خير ما يعين الداعية على ذلك؛ إذ يمكنه من استخدام الظروف والعناصر المتاحة وتوجيهها نحو عمل مثمر في مجال الدعوة، وبالتالي زيادة فرص نجاح الداعي وتحقق مقاصد الدعوة. وقد وجد الشيخ الطاهر بن عاشور في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل‌عمران: ١٧٩] وذلك على اعتبار أن الخطاب في ﴿فَآمِنُوا﴾ «لِلْكُفَّارِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ لِلْكُفَّارِ، فَالْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ ظَاهِرٌ، وَمُنَاسَبَةُ تَفْرِيعِهِ عَمَّا تَقَدَّمَ انْتِهَازُ فُرَصِ الدَّعْوَةِ حَيْثُمَا تأتّت»(ابن عاشور ١٩٨٤م). ووجه انتهاز الفرصة هنا هو أن الله ـ تعالى ـ حذر المخاطبين - مهما كانوا مؤمنين أو منافقين وكافرين- من سنته في التمحيص وتمييز المؤمن عن المنافق والكافر، وأعلمهم أن حقائق اعتقادات الناس ووقت وقوع ذلك التمحيص شأنه ـ سبحانه ـ لا يُطْلع عليه أحدًا إلا من اجتبى من رُسُله، حينئذ كانت الفرصة مؤاتية ليأمرهم ـ سبحانه ـ «بِالتَّصْدِيقِ بِالْمُجْتَبَى، وَالْمُجْتَبَى وَمَنْ يَشَاءُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ إِذْ ثَبَتَتْ نُبُوَّتُهُ بِإِطْلَاعِ اللَّهِ إِيَّاهُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ، وَإِخْبَارِهِ لَكُمْ بِهَا فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ»(أبو حيان ١٤٢٠هـ، ابن الجوزي ١٤٢٢هـ).

٥- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتطلق الحكمة على:القرآن، والتوراة، والإنجيل، والعَدْل، وطاعة الله، والفقه في الدين، والفهم، والخشية، والورع، والإصابة، والقَدْر والمنزلة... وربما غير ذلك(الأنباري ١٤١٢هـ، الزبيدي ١٣٠٦هـ).

وتعددت الأقول في تعريفاتها اصطلاحا؛ فقال الراغب الأصفهاني: «الحِكْمَةُ: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات»(الأصفهاني ١٤١٢هـ)، وقيل: «الحكمة وضع الأشياء مَواضِعَها»(أبو حيان ١٤٢٠هـ، الثعلبي ١٤٢٢هـ)، وعرفها الطاهر بن عاشور بأنها: «إِتْقَانُ الْعِلْمِ وَإِجْرَاءُ الْفِعْلِ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ الْعِلْمِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م). وأما المراد بحكمة لقمان – كما قال الزبيدي– فـ «حُجَّة العَقْلِ على وفْقِ أَحْكام الشَّرِيعَة» (الزبيدي ١٣٠٦هـ).

وقد جاءت الحكمة مطلقة في جميع الآيات الكريمة، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وإنما ذلك لاحتوائها تلك المعاني؛ ومن ثَمّ «فَلَا تَكُونُ إِلَّا فِي حَالَةٍ حَسَنَةٍ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَى أَنْ تَكُونَ حَسَنَةً»(ابن عاشور ١٩٨٤م)، كما أنها لا تقبل الانقسام إلى حَسَن وغير حَسَن.

وأما الموعظة فيمكن أن تنقسم، فتأتي على نحو حسن يحقق الغاية منها، وربما تقع بتغليظ وزجر يفوّتان الغاية منها؛ ولذا ساغ تقييدها بالحسنة؛ قال الطاهر بن عاشور: «وَقُيِّدَتِ الْمَوْعِظَةُ بِالْحَسَنَةِ وَلَمْ تُقَيَّدِ الْحِكْمَةُ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَوْعِظَةَ لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا غَالِبًا رَدْعَ نَفْسِ الْمَوْعُوظِ عَنْ أَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ أَوْ عَنْ تَوَقُّعِ ذَلِكَ مِنْهُ، كَانَتْ مَظِنَّةً لِصُدُورِ غِلْظَةٍ مِنَ الْوَاعِظِ وَلِحُصُولِ انْكِسَارٍ فِي نَفْسِ الْمَوْعُوظِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وأجود مراتب الموعظة الحسنة إلانةِ القول، وترغيب الموعوظ في الخير(ابن عاشور ١٩٨٤م)، كما في خطاب الله تعالى لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى * فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ [طه: ٤٣]. وذلك أن اللين شعار الدعاة إلى الحق، ومن أنفع الأساليب المحققة لأغراضها، قال ــ تعالى ــ واصفا نبيه ﷺ: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، حيث إن «الْمَقْصُودُ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ حُصُولُ الِاهْتِدَاءِ لَا إِظْهَارُ الْعَظَمَةِ وَغِلْظَةُ الْقَوْلِ بِدُونِ جَدْوَى. فَإِذَا لَمْ يَنْفَعِ اللِّينُ مَعَ الْمَدْعُوِّ وَأَعْرَضَ وَاسْتَكْبَرَ جَازَ فِي مَوْعِظَتِهِ الْإِغْلَاظُ مَعَهُ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

٦- المجادلة عند الحاجة، والمقصود بالمجادلة: «مُحَاجَّةٌ فِي فِعْلٍ أَوْ رَأْيٍ لِقَصْدِ الْإِقْنَاعِ بِوَجْهِ الْحَقِّ فِيهِ»(٨١)، ولما تتضمنه من الشدة وكثرة الأخذ والرد أخرت لوقت الإلجاء والضرورة، وفي معرض تفسير الطاهر بن عاشور لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النِّساء ١٠٧] قال: «وَالْمَعْنَى: إذا ألجأتك الدَّعْوَةُ إِلَى مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ فَحَاجِجْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»(ابن عاشور ١٩٨٤م)، ولأنها صادرة عن النبي ﷺ فلا بد أن تكون قسيمة للحكمة والموعظة وحسنة أيضا، وهنا يقول الطاهر بن عاشور: «وَإِذْ قَدْ كَانَتْ مُجَادَلَةُ النَّبِيءِ ﷺ لَهُمْ مِنْ ذُيُولِ الدَّعْوَةِ وُصِفَتْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ كَمَا وُصِفَتِ الْمَوْعِظَةُ بِالْحَسَنَةِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م) ( ).

وأود الإشارة إلى أن الاختلاف اللفظي بين الموعظة التي وصفت بالحسنة، والمجادلة التي وصفت بالأحسن يدل على أن تحقيق سمة (الحُسْن) في المجادلة أكثر صعوبة منه في الموعظة. كما أن التزام (الأحسن) في المجادلة يحول بين المجادل المؤمن وبين تراجعه عند حمأة الجدال إلى المراء المذموم، وغاية ما في الأمر أن يتوقف في تراجعه عند حدود (الحسن).

٧- قصد الناس في مجامعهم، وهو أحد حقوق المدعو، فليس من شأن الدعوة أن تقدم عَرَضًا أو مصادفة، بل يقصد الناس أينما كانوا لأجل الدعوة ذاتها، ويحرص عليهم جميعًا؛ ولذا قيد الله ـ سبحانه ـ التعذيب بالإرسال، وأعطى المدعوين حقهم بإرسال الرسل إليهم، ثم بيّن لهم وأمهلهم حتى أقام عليهم الحجة(البيانوني ١٤١٥هـ). وقد استدل الطاهر بن عاشور على هذا الأسلوب بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] فقال: «وَإِذ كَانُوا مَوْجُودِينَ فَبِالضَّرُورَةِ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ؛ إِذْ هُمْ مِنَ الْبَشَرِ وَيَمْشُونَ فِي أَسْوَاقِ الْمُدُنِ وَالْبَادِيَةِ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ تَكُونُ فِي مَجَامِعِ النَّاسِ. وَقَدْ قَالَ مُوسَى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. وَكَانَ النَّبِيءُ ﷺ يَدْعُو قُرَيْشًا فِي مَجَامِعِهِمْ وَنَوَادِيهِمْ وَيَدْعُو سَائِرَ الْعَرَبِ فِي عُكَاظٍ وَفِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

٨- التوجيه إلى النظر والاستدلال ممزوجا بالترهيب، وقد يحسن هنا التذكير بأن (المثاني) أحد خصائص القرآن الكريم، والعلماء في هذا المقام يقابلون بين الترغيب والترهيب كما هو صنيع الزركشي حيث عده أحد أساليب التشجيع(الزركشي ١٣٧٦هـ). إلا أن الشيخ الطاهر بن عاشور عند تفسيره قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ* أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ...﴾الآية. [النمل: ٨٥-٨٧] ينبه إلى أسلوبٍ آخر هو (الترهيب والتوجيه) فيقول: «وَالْجُمْلَةُ( ) مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النَّمل: ٨٥] وَجُمْلَةِ ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النَّمل: ٨٧] لِيَتَخَلَّلَ الْوَعِيدُ بِالِاسْتِدْلَالِ فَتَكُونَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْحَقِّ بِالْإِرْهَابِ تَارَةً وَاسْتِدْعَاءِ النَّظَرِ تَارَةً أُخْرَى»(ابن عاشور ١٩٨٤م). والدلالة المقاصدية هنا –والله أعلم– تتمثل في الإرهاب والتخويف من سوء المآل؛ الأمر الذي يثير النفس ويهيئ الذهن للبحث عن سبل النجاة؛ ومن ثم يأتي التوجيه إلى النظر والتأمل في آلاء الله ـ تعالى ـ الدالة على وحدانيته في الألوهية والربوبية، وهنا تتجلى إحدى القِيَم العملية للخطاب القرآني وذلك بتغيير الاتجاه الفكري للمخاطب من الإعراض إلى النظر والاستدلال، وبالتالي معرفة الحق والاهتداء إن كان موفقا لذلك.

٩- الطرح المناسب لموضوعات الدعوة، وهو أسلوب استنبطه الطاهر بن عاشور من قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ* وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣] حيث أورد الآيات ثم قال: «اسْتِئْنَافٌ مِنْ كَلَامِهِ، انْتَقَلَ بِهِ مِنْ غَرَضِ الدَّعْوَةِ الْأَصْلِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشُّعَرَاء:١٧٧] إِلَى آخِرِهِ إِلَى الدَّعْوَةِ التَّفْصِيلِيَّةِ بِوَضْعِ قَوَانِينِ الْمُعَامَلَةِ بَيْنَهُمْ، فَقَدْ كَانُوا مَعَ

شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ يُطَفِّفُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَيَبْخَسُونَ أَشْيَاءَ النَّاسِ إِذَا ابْتَاعُوهَا مِنْهُمْ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وقُوام هذا الأسلوب هو العلم بمتطلبات الدعوة وبواقع المدعوين، بالإضافة إلى الاعتماد على ما يستيقنه المدعو من المبادئ والقيم حتى وإن عمل بخلافها.

وبيان ذلك أن قوم شعيب ـ عليه السلام ـ قد فشا فيهم الفساد السلوكي فشمل السادة والعامّة حتى أفسدوا نظام حياتهم وحياة كل من يتعامل معهم(ضمرة ٢٠٠٥م)، فلم تكن ثَمَّة حاجة للتفريق بين الأساس (الدعوة إلى الإيمان بالله) والمسائل التفصيلية (الدعوة إلى عدم التطفيف والظلم والإفساد وقطع الطريق) وبمعنى آخر الدعوة إلى التزام قيم العدل والإنصاف والأمانة والمروءة، وهي مبادئ دينية لا يختلف العقلاء في ضرورتها لسلامة المعاملات في كل زمان ومكان؛ لذا كان من الضروري والمناسب لدعوة أهل مدين تناول الأمرين في آن واحد؛ لأن التلازم حتمي بين الإيمان بالله تعالى وإقامة الحياة على منهج مستقيم(قطب ١٤١٢هـ). ومن ثم يتوجب على الداعية أن يفقه واقعه وواقع المدعوين، ويتخير الموضوعات المناسبة لذلك والتي يغلب على ظنه جدواها وتأثيرها.

ثانيًا: مفهوم الإصلاح لدى الطاهر بن عاشور:

تحدث الشيخ الطاهر بن عاشور هنا عن مصطلحي الصلاح و الإصلاح، وهما من حيث اللغة متحدا الدلالة؛ فكلاهما ضد (الفساد و الإفساد)، قال الراغب الأصفهاني: «وقوبل في القرآن تارة بالفساد وتاره بالسيئة»(الأصفهاني ١٤١٢هـ). وبعد التقليب في المدلولات اللغوية لهاتين الكلمتين خرجت بإطلاقات لغوية ألخصها في الآتي: التنقية، والترتيب، والتوفيق، والإحسان، والتهيئة، وقطع الشر، وتقويه الواهي، وبناء ما تهدّم، وإزالة الخلاف(الجوهري ١٤٠٧هـ، ابن منظور ١٤١٤هـ، ابن سيده ١٤١٧هـ، العسكري ١٤١٢هـ).

وأما من حيث المفهوم الاصطلاحي، فذكر الكفوي تعريفين للصلاح هما: «سلوك طريق الهدى. وقيل: هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل»(الكفوي ١٤١٩هـ). وميّزه الطاهر بن عاشور عن الإصلاح بأنه ذاتي أو نفساني، ويعني «اسْتِقَامَةُ الْأَعْمَالِ وَطَهَارَةُ النَّفْسِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م). كما أنه ينقسم إلى صلاح كامل وأهله الصالحون الممتثلون لأمر الله تعالى، وصلاح مشوب بالتقصير(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وقد نبه الطاهر بن عاشور إلى مقاصد الإصلاح؛ فقال: «وَمَعْنَى أَصْلَحَ فَعَلَ الصَّلَاحَ، وَهُوَ الطَّاعَةُ لِلَّهِ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى، لِأَنَّ اللَّهَ مَا أَرَادَ بِشَرْعِهِ إِلَّا إِصْلَاحَ النَّاسِ»(ابن عاشور ١٩٨٤م)، وبهذا المفهوم أصبح الإصلاح عنده موضوعاً «للقدر المشترك بين إيجاد الشيء صالحاً، وبين جعل الفاسد صالحاً»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وبالنظر إلى خصوص الرسالات السابقة وعموم رسالة النبي ﷺ يرى الطاهر بن عاشور أن الأنبياء قبل النبي ﷺ كانت مهمتهم إصلاح الفطرة إصلاحاً جزئياً، وأما بعثة النبي ﷺ فلإكمال ذلك الإصلاح وإعادة الناس إلى الوَحدة على الخير والهدى(ابن عاشور ١٩٨٤م). وانطلاقاً من ذلك ينبغي أن يأخذ الإصلاح الصبغة الشمولية، وفي ذلك يقول: «وَالْمَقْصُودُ هُنَا جَمِيعُ الْإِصْلَاحِ لَا خُصُوصَ إِصْلَاحِ ذَوَاتِهِمْ فَيَشْمَلُ إِصْلَاحَ ذَوَاتِهِمْ وَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ إِصْلَاحَ عَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ بِالتَّعْلِيمِ الصَّحِيحِ وَالْآدَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْعَالَمِ، وَيَتَضَمَّنُ إِصْلَاحَ أَمْزِجَتِهِمْ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ وَالْأَخْطَارِ وَالْأَمْرَاضِ وَبِمُدَاوَاتِهِمْ، وَدَفْعِ الْأَضْرَارِ عَنْهُمْ بِكِفَايَةِ مُؤَنِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالْمَسْكَنِ بِحَسَبِ مُعْتَادِ أَمْثَالِهِمْ دُونَ تَقْتِيرٍ وَلَا سَرَفٍ، وَيَشْمَلُ إِصْلَاحَ أَمْوَالِهِمْ بِتَنْمِيَتِهَا وَتَعَهُّدِهَا وَحِفْظِهَا»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وإن صح التعبير هنا فإن الطاهر بن عاشور ينبهنا إلى خصيصة الشمولية التي تمتاز بها كافة دعوات الرسل الكرام ـ عليهم السلام ـ التي من شأنها تأتّي الإصلاح على الوجه المشروع الذي أمر الله ـ تعالى ـ به. إلا أن رسالة النبي ﷺ تزيد على الرسالات السابقة بخصيصة العالمية المرتبطة ارتباطا وثيقا بعقيدة ختم النبوة.

وبعد ذلك يجعل من خصائص الأعمال الإصلاحية أن تعود بالخير على فاعلها وغيره، «فَإِنْ عَادَتْ بِالصَّلَاحِ عَلَيْهِ وَبِضِدِّهِ عَلَى غَيْرِهِ لَمْ تُعْتَبَرْ صَلَاحًا، وَلَا تلبث أَن تؤول فَسَادًا عَلَى مَنْ لَاحَتْ عِنْدَهُ صَلَاحًا»(ابن عاشور ١٩٨٤م). ويؤكد في الوقت ذاته على البدء بالإصلاح الفكري فيقول: «وَابْتُدِئَ التَّشْرِيعُ بِالنَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ أَصْلُ الْإِصْلَاحِ، لِأَنَّ إِصْلَاحَ التَّفْكِيرِ مُقَدَّمٌ عَلَى إِصْلَاحِ الْعَمَلِ، إِذْ لَا يُشَاقُّ الْعَقْلُ إِلَى طَلَبِ الصَّالِحَاتِ إِلَّا إِذَا كَانَ صَالِحًا»(ابن عاشور ١٩٨٤م).

وكل هذا يعكس الهم الدعوي والإصلاحي الذي استوعب الكثير من وقت الطاهر بن عاشور وجهده، وبخاصة إصلاح التعليم من حيث هو الوعاء الذي يحوي العملية الدعوية بكافة معطياتها، ويمكن من تأهيل دعاة قادرين على حمل الأمانة على الوجه اللائق والملبي للواجب الكفائي الذي سبقت الإشارة إليه، وفي ذلك

يقول: « التعليم العام إن صَلُحَ عم به الصلاح، وإن كان فاسداً شقيت به الأمة كلها »(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وأمكنه تبعاً لذلك أن يحدد مقاصد التعليم في ست نقاط هي:

أولا: «إنشاء أرقى أصناف الناس من كل من تمرس بالأشغال والأعمال، أو رزق المواهب الحسنة ورغب في سلوك خير السبل، وشغف بالمعرفة وامتاز بحب الواجب والتعقل»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وعبارة الطاهر بن عاشور هذه أُراها تتجاوز حد التميز المنشود في المخرجات الطلابية في أيامنا الحاضرة، وترنو إلى الإبداع الفائق (العبقرية).

ثانيا: تحقيق السعادة العامة للأمة المتمثلة بجلب المنافع واتقاء المضار(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ثالثا: الارتقاء بالعقل لإدراك الحقائق(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

رابعا: اقتدار المتعلم على إفادة غيره بما أدركه وتعلمه(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

خامسا: رسوخ التعليم لدى الطلاب(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، فـ «شَأْنُ التَّعْلِيمِ الصَّالِحِ أَنْ يَضْبِطَ لِلْمُتَعَلِّمِ قَوَاعِدَ وَأَسَالِيبَ تَبْلُغُ بِهِ إِلَى الثَّمَرَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ الْمَعَارِفِ الَّتِي يُزَاوِلُهَا»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

سادسا: بلوغ المتعلم مرحلة الرضا عن النفس والثقة بحصول مبتغاه من التعليم(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

المبحث الثاني

التطبيقات الإصلاحية لدى الطاهر بن عاشور

اتجهت همة الشيخ الطاهر بن عاشور لإصلاح التعليم، وكَوّن تصورا واضحًا للتطبيقات الإصلاحية التي يتطلع إليها، وساعده على ذلك معرفته بالأنماط التعليمية السائدة آنذاك، وهي:

الأول: النمط التركي العثماني، وقد نسب الوزير خير الدين باشا بدايات الإصلاح فيه للسلطان العثماني محمود عدلي الثاني وولديه السلطان عبدالمجيد والسلطان عبدالعزيز(باشا التونسي ١٢٨٤هـ)( ). ولكن يتدارك عليه بأن إصلاح التعليم سبقهم بكثير حيث بادر إليه السلطان سليمان القانوني الذي أجرى تغييرات كثيرة في نظام العلماء والمدرسين، وجعل وظيفة المفتي أكبر الوظائف العلمية(فريد بك ١٤١٩هـ). وقد خصص الوزير خيرالدين فصلا كاملا في كتابه (أقوم المسالك) لنظم التعليم العثماني والإصلاحات التي تمت فيه(باشا التونسي ١٢٨٤هـ). ومع أن هذا النمط ذو سمة خاصة بالدولة العثمانية وتظهر عليه الصبغة الشرعية بجلاء، إلا أنه تأثر بتقدم الإفرنج في المعارف كما قال الوزير خير الدين(باشا التونسي ١٢٨٤هـ).

والثاني: النمط المصري، ويتمثل في أعمال سلطان مصر مُحَمَّد علي باشا الأكبر الذي كثرت في أيامه المدارس النظامية، وأرسل البعثات التعليمية إلى أوربا(الزركلي ١٩٨٤م). وهو نمط يختلط فيه الموروث الإسلامي بمعطيات المدنية الأوربية.

والثالث: النمط الأوربي، وهو النمط الذي احتك به وعايشه معظم رجالات الإصلاح التونسيين بمن فيهم الشيخ الطاهر بن عاشور، وتحدث الوزير خير الدين باشا عنه مطولا في كتابه (أقوم المسالك)، وركز فيه على تنظيمات مملكة فرنسا التي اشتهرت بحسن التنظيم في أطوار التعليم والتعلم وتراتيبها، مع دعوته للقياس عليها والاقتداء بها(باشا التونسي ١٢٨٤هـ).

ويظهر أن الطاهر بن عاشور تأثر إلى حدٍّ ما بتوجهات الوزير خيرالدين باشا الذي كان ميالاً إلى النمط الأوربي، حيث إنه أقدم على تنظيمات إدارية وقانونية لجامع الزيتونة مستوحاة من النمط الفرنسي الذي تمثلت معالمه في: تقسيم مراحل التعليم، وتحديد الكتب الدراسية لكل مرحلة، وعدد الحصص اليومية، والإرشاد الطلابي (قسم لنصائح تربوية)، ونظام للحضور والمواظبة، وترتيب امتيازات للطلاب؛ مثل: الإعفاء من الخدمة العسكرية والضرائب، وإنشاء المكتبة الصادقية بجامع الزيتونة، وإنشاء سكن للطلاب(عبدالسلام ١٤٠٧هـ).

ولما تقلد الطاهر بن عاشور مشيخة جامع الزيتونة؛ وجدناه مستحضرا لتوجهات خيرالدين وعازما على إكمالها، وفي ذلك يقول: «على أن كثيرا من رجال الإصلاح مثل الوزير خيرالدين قد تركوا أشياء كثيرة لم يتموها عندما أحسّوا بانقباض صدور أهل العلم من حملهم على التراتيب وعدهم ذلك مضايقة لهم وإيهامهم العامة أنه تداخل في الدين، ولكن بفضل التجربة قد أصبحنا نزجي آمالنا إلى الحكومة لتتلقى من عقلاء علمائنا كل مطلب مستقيم وفكرة صحيحه في إصلاح التعليم العربي الإسلامي»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، بالإضافة إلى إلحاحه على ضرورة حب النظام وعدم معاداة القوانين، وأهمية التناسب في المظاهر كلها(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). وما حديثه عن تحسين أساليب التعليم لدى القاضي أبي بكر بن العربي وابن خلدون، أو مراقبة التعليم لدى عثمان بن

عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنها(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، إلا من باب التنبيه إلى أصالة الفكرة لدى المسلمين على قلة تطبيقاتها، بالإضافة إلى تحبيذ فكرة التنظيمات الإدارية، وتحويلها إلى تطبيق عملي يتواءم مع مستجدات العصر.

وأما فيما يختص بالمناهج ومضامينها فقد أقدم على تطوير مناهج جامعة الزيتونة وبخاصة دروس التفسير، ومواد الآداب والأخلاق والبلاغة(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وكأنه بذلك يستدرك السلبيات التي تضمنها تقرير الجنرال حسن بخصوص تلك المناهج التي كان منها عدم وجود دروس لتفسير القرآن الكريم(عبدالسلام ١٤٠٧هـ).

وعلى ضوء ما تقدم يمكن تحديد إصلاحات الطاهر بن عاشور التعليمية في إطارين: نظري وعملي، وفق الآتي:

أولاً: الإصلاح النظري:

اعتمدت في تحديد معالم الإصلاح النظري لدى الطاهر بن عاشور على كتابه (أليس الصبح بقريب) لما ظهر لي أنه أكثر التصاقا بالعملية التعليمية وقضية الإصلاح فيها، وخلصت من مطالعتي فيه إلى تحديد عدد من أوجه الإصلاح النظري أعرضُها على القارئ الكريم مرتبة على النحو الآتي:

تشخيص إشكاليات التعليم:

يفهم من عموم أطروحات وتوجهات الطاهر بن عاشور أنه ينظر إلى المعلم على أساس أنه الداعية الأكثر قربًا من الناس واحتكاكًا بهم، وأي تقصير يصدر منه أو إشكال يرد عليه سينعكس سلبًا على العملية الدعوية؛ ولذا بادر الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى تشخيص تلك الإشكاليات في الصفحات الأولى من كتابه (أليس الصبح بقريب)، وقد يكون من اللطيف بيان الإشكاليات التي وقفت عليها على هيئة نقاط كما يأتي:

١- إشكاليات المعلم: وأبرز الإشكاليات التي وقفت عليها لدى الطاهر بن عاشور هي:

التشتيت للمادة العلمية وللطلبة، وذلك أن بعض الأساتذة من ذوي المطالعات الواسعة يحبون إظهار مزيتهم تلك لتلاميذهم فيتوكأ أحدهم على أدنى سبب ليستحضر تلك المعلومات وينهمك في سردها(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). ودافع ذلك -والله أعلم– شيء من الغرور يصيب المعلم في أول أمره، ثم لا يلبث أن يدرك الصواب ويرجع إليه، وهو ما وقع للشيخ نفسه و لشيخ الأزهر مُحَمَّد الخضر حسين.

وهذه الظاهرة لاتزال قائمة في وقتنا الحاضر ولكنها على شاكلة أسوأ في تقديري، فإن بعض المعلمين يدارون ضعفهم بمثل هذه التصرفات، وأسوأ منهم أولئك المتشاغلون بقضايا لا تمت للعلم بصلة يضيعون بها أكثر أوقات الدروس.

وتكمن مساوئها في صدورها عن خلق ينبغي للأستاذ أن يتجنبه سواء كان الغرور أو الإهمال، وأيضا في تضييعها الوقت المخصص للدراسة؛ ومن ثَم تفويت حق الطلاب في تعلم ما حضروا لأجله.

كراهية بعض المعلمين للالتزام بالأنظمة والقوانين الضابطة لسير العملية التعليمية(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وكذا المنظمة لكيفية التدريس، وأوقاته. والمتحذلقون منهم–كما قال الطاهر بن عاشور- يرون في سَنّ تلك القوانين غلًّا يقيّد المعلم ويمنعه من استخدام مواهبه في إثراء الدرس والنهوض بقدرات الطلاب(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

والصورة المشاهدة اليوم لتهرب بعض المعلمين من الالتزامات القانونية تظهر في التلاعب بأوقات المحاضرات، أو كثرة التغيب عن الدروس، واختلاق الأعذار، أو التشاغل عنها بقضايا أخرى تحت أي ذريعة من الذرائع.

وصدور مثل هذه الأعمال عن بعض أساتذة العلم الشرعي أكثر قتامة وسلبية؛ لأنه يتيح المجال لمرضى القلوب للتطاول على الدعاة، والإساءة إلى الدعوة.

وللطاهر بن عاشور تنبيه لطيف يرد فيه على أولئك المتحذلقين فيقول: «إن المعلم الحكيم النقّاد قد يكون ضبطه بقواعد نظام التعليم حجرًا على مواهبه السامية، ولكن أنّى لنا هذا المعلم وأنّى لنا عند وجوده ينصح لتلامذته، فهو غير مأمون الوجود، ومع وجوده غير مأمون الاطراد، فضبط التعليم بالقواعد يقصد منه الأمن عليه من عبث العابثين وخديعة المرائين»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

عدم اقتناع عدد من المعلمين بضرورة الاهتمام بالتعليم والعناية به وإعطائه أولوية في التحضير والتهيئة، ويصرون على طريقة واحدة تعارفوا عليها، وغالبا ما تكون هي الطريقة التي تعلموها إبان طلبهم للعلم(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). الأمر الذي يفقد المادة العلمية بهجتها وجدتها، ويورث الطلاب السأم والملل.

٢- إشكالية الطلبة: ونبه الشيخ الطاهر بن عاشور على واحدة هي: استعجال الطلاب في تحصيل الشهادة وتفكيرهم في ذلك منذ بدء الدراسة، بغض النظر عن الإجادة العلمية، ويعزو الطاهر بن عاشور ذلك لثلاثة أسباب هي:

الأول: الرغبة في الوظيفة الحكومية، متزامنة مع تشجيع قليلي الخبرة وقاصري النظر من أولياء الأمور وغيرهم على ذلك.

والثاني: قصور التعليم ذاته عن التنويه بقيمة الكمال العلمي.

والثالث: تشوف نفوس الطلبة للانتهاء العاجل من مرحلة الدراسة.

ويتولد عن هذه الإشكالية: سطحية التعليم، وقلة المتضلعين في العلم، وندرة العلماء المشاهير(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

٣- إشكالية أساليب التعليم: وركز الطاهر بن عاشور الحديث هنا على: قلة التمارين وضعفها، وخصوصا في المرحلة الابتدائية(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وذلك أن كثيرا من المواد كاللغة العربية والرياضيات تتطلب كثرة التمارين، وإلا فقدت الكثير من فائدتها، ولم يحصل منها الطلبة إلا القليل؛ ومن ثم ملاحظة القصور لدى الدارسين.

٤- إشكاليات نظام التعليم: وأهمها من منظور الطاهر بن عاشور هي:

أ) عدم مراقبة التعليم من قبل الدولة أولاً، وذلك أن التعليم تعتوره حالات وأحكام، فمنه النافع ومنه الضار، ومنه الجائز وغير الجائز، ووظيفة المراقبة تميز الصالح عن غيره(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، ولكن التعليم الإسلامي العربي لم يخضع لهذه الرقابة، إلا ما كان من جمع المسلمين على مصحف واحد أيام عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ومرور علي بن أبي طالب على حِلق الدروس بجامع الكوفة، وقراءة الخليفة المأمون لكتب الجاحظ(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، ولكنها في المجمل ليس مراقبة بالمعنى التنظيمي المعاصر الذي اعتمدته الدول الأوربية على وجه التحديد، والذي تقوم به حاليا وزارات التربية والتعليم.

ولكن الشيخ يجد للدولة العباسية عذرا في ترك المراقبة، حيث إنها رأت أن نشأة العلم وتطوره محتاج إلى الحرية أكثر منه إلى المراقبة(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)( ).

ب) إهمال الضبط، ومراده بذلك عدم تحديد المراحل الدراسية، ولا العلوم المتلقاة، ولا الكتب المرجعية، فالتعليم اختياري ليست له طريقة واحدة، والطالب يتعلم باختياره، والمدرس يدرس ما يروق له، والمؤلف يصطلح على ما يشاء في العلم(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ومن إهمال الضبط ما يقع في دروس التطوّع التي يلقيها المدرسون زيادة على دروسهم الرسمية أو التي يلقيها المتطوعون، حيث لا ينضبطون في أدائها، وتختلط على الطلاب الدروس الرسمية من غيرها. ويزداد الأمر سوءًا إذا كان هؤلاء المتطوعون ضعفاء علميا، وعددهم يفوق الحاجة الفعلية للدروس المقررة. الأمر الذي ينتج عنه طبقات قاصرة من التلاميذ(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ت) إغفال المنظور الصحي في التعليم، فالصورة القائمة هي «إشغال التلامذة وأوقاتهم ومجالسهم ومساكنهم ومحل درسهم... وقد شاع من تقاليد الفئة العلمية عندنا أن من لوازم الصفة العلمية قلة المشي، ومشي الهوينا، وقلة الحركة... حتى إذا تَرَقّوا في الخطط العلمية عكفوا في بيوتهم»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). ومحصلة ذلك ضعف قوى الطلاب العقلية والجسمية عن المتابعة والتحصيل.

ث) التفاوت العلمي الكبير بين طلاب المرحلة الواحدة(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وهو ناشئ عن اختلاف مرجعيات الطلبة الوافدين إلى جامع الزيتونة فيجتمع في المرحلة الواحدة الحافظ وغير الحافظ، والكاتب وغير الكاتب... وهكذا دواليك. فلا يأتي التعليم حينئذ متوازيا، ويفوت التحصيل الجيد على عدد كبير من الطلاب.

٥- إشكاليات المناهج: وأهمها لدى الطاهر بن عاشور هي:

أ) خلو مناهج التعليم عن مادتي الآداب وتهذيب الأخلاق(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، ومن أثر ذلك تردّي المستوى الأخلاقي لدى الطلاب عموما، ولدى الطلاب الشرعيين بجامع الزيتونة على وجه التحديد، «فترى تلك الهياكل العظيمة فارغةً من الفضيلة ومكارم الأخلاق والمروءة، وبذلك رزئت الأمة أنفع عنصر في حياة الأمم وكمالها وهو الأخلاق، وإذا كانت تلك حالة خاصة الناس فما ظنك بعامتهم، وإذا ذهب وقت التعليم عن الطلبة ولم يتلقوا فيه فضائل الأخلاق فمن العسير أو المتعذّر تلقينها لهم من بعد»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ب) عدم التناسب بين المناهج والمراحل الدراسية، وهو ما عبر عنه بقوله: «الغفلة عن إعطاء كل مرتبة من مراتب التعليم ما تحتاجه من الأسلوب اللائق بها والنافع فيها»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).ويضرب المثل لذلك بتقرير كتاب (إيساغوجي) في المنطق على المرحلة الابتدائية بجامع الزيتونة لأنه «صغير الحجم

بقدر كتاب الآجرومية في النحو مع الغفلة عما بين العلمين من الفرق الشديد في قابلية الأفهام»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ت) خلو التعليم من المواد التي تفيد التلامذة اطلاعا على أحوال الأمم الماضية، والتاريخ الإسلامي، وتراجم رجاله، وتاريخ الأمم المعاصرة، وتاريخ الحضارة، فيتخرج الطلاب ضعاف البصائر، ضيقي الأفكار، لا يعرفون من أحوال العالم شيئا(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

المعالجات النظرية:

إن الهم الدعوي والإصلاحي الذي عايشه الشيخ الطاهر بن عاشور دفع به إلى تجاوز حد تشخيص المشكلات، والحرص على طرح أفكار إصلاحية في كتابه (أليس الصبح بقريب) يمكن لنا أن نعدها طائفة من الأساليب الدعوية التي ينبغي أن يُحْرَص عليها من باب أداء واجب الدعوة وواجب التعليم في آن واحد، وتبعاً لسعة أفقه وبعد نظره فقد جاءت طائفة من تلك الأفكار تطويرية تقتضيها المصلحة والمعطيات المعاصرة، وفيما يأتي بيانها:

١- يتوجب على الإرشاد الطلابي في مرحلة التعليم العام والإرشاد الأكاديمي في المرحلة الجامعية أن يوضح مآلات الاختصاصات التي يختارها الطلاب ليدركوا منذ البدء مدى توافق تلك الاختصاصات مع قدراتهم الشخصية وطموحاتهم المستقبلية، وفي هذا الصدد يقول:«من واجب كل داع إلى التعليم أن يوضح لطالبيه الغايات التي يحصلونها من مزاولة ذلك التعليم، سواء كانت غاية دنيوية أو أخروية... فتلك الغاية هي يجتني منها المحصِّل على نهاية ذلك التعليم نفعاً لنفسه دنيويًا أو أخرويًا»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، مع ضرورة التنويه إلى الغاية الأسمى من التعليم بكافة اختصاصاته وهي «إنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها، وهداةٍ هم مصابيح إرشادها»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

٢- وبما أن إطار التعليم أوسع من القوانين المنظمة له ؛ فإن القائمين عليه من الإداريين والأساتذة لا بد أن يجعلوا من الارتقاء الأدبي والاجتماعي أولوية تربوية(ابن عاشور ١٤٢٧هـ))، إما من خلال الدروس أو من خلال الأنشطة المصاحبة والملتقيات التثقيفية العامة.

٣- والتقدم العلمي إلى جانب إخلاص الأساتذة في التعليم وإخلاص الطلبة في التلقّي والتحصيل؛ يتطلب «وضع برامج تحقق حياة هذا التعليم على حالة كاملة، وتحقق مقاصد طالبيه في معترك حياة عصرهم، وتحقق مقاصد الأمة من خريجي هذا التعليم»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، ومما يعين على ذلك تحديث سبل التعليم وتطويرها، ومن ثَمّ تجاوز المنفرات الشكلية والنفسية التي يتعذر بها عدد من طلبة هذا المجتمع العصري.

٤- ولمعالجة غياب الرقابة على التعليم؛ يدعو الطاهر بن عاشور إلى «تكليف عقلاء القوم وحكمائهم - الذين يُعْتَمدون في وضع أساليب التعليم- بترتيب كل ما يبلغ بالعلم والمتعلمين إلى الغاية المطلوبة في أقرب وقت»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، مشددًا على أن تتسم تلك الأساليب بالجِدَّة ومواكبة التطور المدني، ومشيدًا في الوقت ذاته بالتطور الأوربي في هذا السياق، مع تذكيره ببعض الخطوات الرقابية المحدودة التي قام بها عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ إبان خلافتهما، والخليفة العباسي المأمون(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). ومن ثمرات ذلك: الارتقاء بلغة التعليم، والتطوير المستدام للعلوم، وتنظيم البرامج التعليمة، وإيجاد البيئة التعليمية الصالحة والمنضبطة، واستدراك النقص الطارئ عند المعلمين، وانتظام الدروس، وجودة المخرجات.

٥- وأما إهمال الضبط، فعلاجه – كما قال الشيخ – في أربعة أمور هي(ابن عاشور ١٤٢٧هـ):

إلزامية التعليم، حيث إنه يدخل في إطار نصح الحكومة لشعبها، وحملهم جبرًا على تحقيق مصلحة متفق عليها.

ضبط وقت التعليم النظامي؛ وذلك لمنع تداخل الدروس، وتنظيم توزيع التلاميذ، وضبط حضور المدرسين، مع التدريب على احترام الوقت وإعطائه قيمته.

ومن اللطائف للطاهر بن عاشرو في هذا السياق تنبيهه إلى غياب المقصد من تحديد أوقات الدروس عن أذهان الكثير من المعلمين وهو: سعة الفكر مع الإفهام في وقت وجيز، فالحال القائم كما قال الشيخ: «هجوم المدرسين على المسائل التي يسمع التلميذ دويها ولا يفهم المراد منها، وتجعل في نفسه إما اليأس من فهم العلم، أو اعتياد القناعة بما لا يفهم»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ضبط محل التعليم، ويعني بذلك المدارس ومراحلها، والكليات وأنواعها.

تقسيم التلامذ على المراتب اللائقة بهم، وهو ما نتعارف عليه الآن بـ (السنوات الدراسية) في التعليم العام، و (المستوى) في التعليم الجامعي، وكأني بالشيخ يتحدث عن فصل نموذجي من حيث العدد والتقارب العمري والعلمي للطلاب. إلى جانب التنظيمات

المتبعة في ضبط الصفوف، وإجراء امتحانات الانتقال من سنة إلى أخرى.

٦- ومن ضرورات التعليم: تطوير الملكة النقدية لدى المتعلمين؛ إذ من مقاصد التعليم إيصال العقول إلى درجة الابتكار، فيستحدث من العلوم والقضايا والأساليب ما ليس موجودًا، «ولهذا الغرض انتخبت في عصور النهضة لكل أمة طريقة التعليم البحثي النظري، وهذه طريقة المتقدمين من المسلمين، فإنهم ما كانوا يتابعون رأيًا إلا بعد اتضاح دليله، وما تعلمهم لعلوم أساتذتهم ومتابعتُهم لأقوالهم إلا ليجعلوها أولًا يبنون عليها ما يحدثونه؛ اقتصادًا في الوقت وتقليلًا للمسافة»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). ولكن يستدرك الشيخ هنا فينبه إلى أن النقد في العلوم الشرعية ينبغي ألا يقع إلا في المستويات الدراسية العالية، وأما تلاميذ المرحلتين الابتدائية والمتوسطة فليس من شأنهم ذلك لافتقادهم الحصيلة العلمية الضرورة لذلك؛ فيقول: «ينبغي أن تكون القاعدة هنا أدق، وهي أن لا يتصدى لانتقاد العلوم الشرعية والاجتهاد فيها إلا كبار العلماء المحيطين بجل مقاصد الشريعة وعلوم الآلة والأدلة الشرعية وأصول الدين والفقه والحديث، ولو فتحنا الباب على مصراعية لتكلم الرويبضة وقليل العلم ومن لا صلة له بالعلم الشرعي أصلًا»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

وأجد في هذا تنبيهًا من الطاهر بن عاشور إلى خطورة التصدي للدعوة من لدن قليلي البضاعة في العلوم الشرعية، حيث سيفسدون وسيباعدون الناس عن الدين ويضلونهم مع أنهم في الظاهر يريدون الإصلاح، ولربما انطبق عليهم حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا»( ).

٧- وفيما يختص بخلو التعليم عن مواد الآداب وتهذيب الأخلاق يرى الشيخ ـ رحمه الله ـ أن من الواجب بث الفضيلة بين التلاميذ من خلال تدريبهم على: علو الهمة، ورحابة الصدر، والترفع عن سخيف المطامع، وعن الحسد والظلم والخصام، ومجانبة الأوهام، والتزام العدل في جميع التصرفات(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وكأني به ينوه إلى تفعيل دور النشاط غير الصفي ليغطي النقص الناتج عن غياب تلك المواد. بالإضافة إلى تكوين الشخصية المؤهلة لتحمل أعباء الدعوة فيما بعد مرحلة الإعداد.

٧- وأما ما يتعلق باستعجال الطلبة الحصولَ على الشهادة فعلاجها من الناحية الإدارية يكمن في ترتيب التعليم على سنوات، وعدم التساهل في الامتحانات، بالإضافة إلى إقناع الطالب بالمراد من التعليم وهو بلوغ الكمال الذاتي والرضا الصادق عن النفس علميًا(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

٨- وحفاظًا على المصلحة العامة للتعليم والمتعلمين دعا الشيخ الطاهر بن عاشور لإتقان التأليف، وكذا اختيار المؤلفات المشهود لها بالجودة واليسر(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، ويشدد ـ رحمه الله ـ على أمرين مهمين؛ هما:

عدم ترك الأساتذة وشأنهم في اختيار الكتب المقررة، ومؤدى ذلك أن يتم تأليف الكتب المقررة أو اختيارها عن طريق لجان مختصة بذلك.

التجديد والتطوير الدائم لتلك الكتب.

وفي ذلك يقول: «التأليف طريق العلوم؛ فأي طريق نجده يوصل إلى الغاية في أمد أقصر وجب علينا سلوكه، وأن نرشد إليه أبناءنا المتعلمين الذين جعلوا مستقبلهم بأيدينا، وهذا الغرض وإن كان يتوقف على إصلاح العلوم ولكن لإصلاح التآليف معونة قوية فيه، فمن الواجب ترك التطويلات في التآليف التي كان يسلكها المتوسطون من العلماء بزيادات خارجة عن الموضوع، وتخليط العلوم... لا بد من تجنب التأويل للتراكيب الفاسدة»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

٩- ثم يقف الشيخ في معالجاته النظرية عند قضية تسلسل المناهج، أو ما يعبر عنه حاليًا بمتطلبات المقرر، وهي قضية بالغة الأهمية، فالعلوم تكاملية، ومن الخطأ البيّن تدريس الموضوعات المتقدمة للمادة قبل إحاطة الطالبات بأسسها وبدهياتها، فلا بد من تدريج الطالب ونقله من معلوم إلى مجهول عن طريق تقسيم المادة إلى وحدات، أو تقسيمها وتدريسها في عدة مستويات دراسية مع مراعاة التسلسل العلمي السليم(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

١٠- وخاتمة معالجاته النظرية التي وقفت عليها هي: ضرورة التزامن بين إصلاح التعليم وإصلاح المعلمين، وفي ذلك يقول: «ولكننا نمضي زمنًا غير قصير لإتمام خطط تعليمنا الجيد، فلا ندع الأساتذة في خلال هذا الزمن يعبثون بالقواعد، بل نستعين لحفظ المبادئ المراد إجراؤها بعقول النبهاء منهم، وبتعريف الذاهلين بشيء من أحوالهم الموقعة في إخلال التعليم عساهم أن ينبذوها قبل أن يشعر الناس منهم بها، أو قبل أن يواجهوهم بتغييره، فإنا لا نزال نحب احترامهم وعظمتهم بحب وإخلاص في قلوب تلامذتهم»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ويبدو من مقاصد الشيخ هنا عدم الاقتصار على مجرد الطرح، بل تطبيق المراقبة وتتبع النتائج:

فمعيار جودة أداء المعلم ونجاحه على سبيل المثال تتبدّى في نجابة الطلاب وفي ذلك يقول: «والمشائخ المدرسون ــ وإن بلغوا ما بلغوا من اجتهاد في التعليم ــ فإن ثمرة اجتهادهم لا تظهر إلا بمقدار نجابة تلامذتهم»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

وعلى النقيض من ذلك فإن عدم الفصاحة وضعف اللغة ناتجُ قصورِ المعلم ذاته؛ لذا قال الشيخ: «هل نرجو من تلامذتنا اليوم أن يكونوا فصحاء بلغاء وهم لا يقرع سمعهم إلا سقط الكلام، ورعونة التعبير، ولا يعرفون معنى الإنشاء والفصاحة؟»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، كما أن قِلَّة النباهة والتحصيل لدى التلاميذ مَرَدُّها - على الأغلب– إهمالُ المعلِّم وتقصيره في الأداء والمتابعة، وفي ذلك يقول: «ونسبة النباهة والتحصيل بين التلامذة قليلة بسبب إهمال التمرين وترك مراجعة ما يقرؤونه قبل الدرس وبعده وترك مطالبتهم باستذكار ما تعلموه»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

كما أن الالتزام بالخطة النظامية للتعليم تظهر من انضباط المنتسبين إليه، وتدريس كامل المواد المعتمدة فيها، وقد اكتشف خللًا في كلا الأمرين حينما راقب الدروس التطوعية التي يؤديها المدرسون الرسميون أو المتطوعون، وخلص إلى أن هذا العمل التطوعي البحت غير منضبط بالخطة النظامية المعتمدة، ولا يحقق أهداف التعليم ولا غاياته، ويشوبه الكثير من التقصير والخلل(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

وحينما راقب الشيخ تطبيق الخطة المعتمدة للتدريس في جامع الزيتونة التي تشمل تدريس ثلاثة وعشرين عِلْمًا، اكتشف إغفال تدريس سبعة مواد هي: «آداب الشريعة، التاريخ، الرسم غير التوقيفي، والعروض، والهندسة، والهيئة، والمساحة»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وضعفًا في تدريس خمسة مواد هي: «اللغة العربية، والأدب، وآداب البحث، والميقات، والحساب»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ)، وذلك بسبب اختصارات المعلمين، واقتصارهم في الامتحان على القدر المدرّس فقط(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

وفي ثنايا عباراته ما يَشِي بما يزاوله بعض المدرسين والأساتذة في وقتنا الحاضر، حيث يلجؤون إلى الاختصارات والملخصات المخلة، فينكب عليها الطلاب، ولا يبقى لديهم أدنى رغبة في مطالعة الكتب الرئيسة للمنهج.

وأما جدوى التعليم العالي فمقياسه لدى الطاهر بن عاشور مدى قناعة الجمهور به والمستوى الثقافي السائد لدى المجتمع، وفي ذلك يقول: «وقد قام دليل المشاهدة على قلة عدد من يريد الاستكمال بعد تحصيله على شهادة التطويع؛ ولذا لا توجد طلبة فيما وقع الاعتناء بإحيائه من الدروس العليا بمساعدة نحارير المدرسين إلا قريبًا من ربع أصحاب شهادة التطويع الذين يباشرون الإقراء بالجامع»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). وتزداد الإشكالية في ظل غياب المفهوم الصحيح للعلم لدى فئة من الناس؛ الأمر الذي جعلهم – كما قال الشيخ الطاهر بن عاشور – يدرسون علومًا لا يحتاجون إليها وإنما من باب الخيلاء والتباهي، وإذا ما درسوا العلوم العالية اقتصروا على ألفاظ وحقائق يسردونها عن ظهر قلب، ويبهرون بذلك عوام الناس، فتكثر بذلك المسائل التي لا حاجة إليها، وتهمل المسائل والعلوم المهمة(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

ثانياً: الإصلاح العملي:

لَمّا حانت الفرصة للشيخ الطاهر بن عاشور بشغله مشيخة جامع الزيتونة باشر على الفور إصلاح التعليم، ولعل من أهم ما قام به(الغالي ١٩٩٦م، الزمرلي ١٩٨٦م، أبو حسان ١٤٣٠هـ، الميساوي ٢٠٠١م):

إنشاء نظام مراقبة الحضور والانصراف (التفقد) للطلاب، وللمدرسين بجامع الزيتونة.

التوسع في إنشاء فروع لجامع الزيتونة داخل دولة تونس وخارجها، حيث أنشأ فرعين للتعليم الزيتوني بتونس العاصمة؛ وهما الجامع المرادي والجامع الحسيني، وفروع أخرى في المهدية والمسنتير وباجة وبنزرت ومدنين. وفرعين بالجزائر في مدينة قسنطينة، وفرعين للبنات بتونس العاصمة وصفاقس.

وفي الجملة تنامى عدد فروع جامع الزيتونة من ثماني مدارس ومعاهد حتى جاوز العشرين مدرسة ومعهدًا علميًّا. وتبع ذلك ازدياد عدد الطلاب المنتسبين للجامع حتى قدر عددهم بخمسة وعشرين ألف طالب، وقد كان عددهم قبل تلك الإصلاحات ثلاثة آلاف.

تنظيم الامتحانات، وضبطها ضبطًا محكمًا، وذلك بإسنادها إلى لجان متخصصة تشرف على توقيتها وتنظيمها وإدارتها.

تطوير التعليم بجامع الزيتونة إلى شعبتين:

الشعبة الأصلية وتنبني الدراسة فيها على المواد الشرعية كالفقه والتفسير والحديث مع الأخذ بعلوم الحساب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا.

والشعبة العصرية تلم بالعلوم الشرعية مع الأخذ الكثير بالعلوم الرياضية، والطبيعية، والفلسفية، والتاريخ، واللغات ؛كالإنجليزية.

استبدال المقررات القديمة بأخرى حديثة تواكب المعطيات المدنية، وتتسم باليسر وكثافة التمارين؛ لتكون بذلك وسيلة لتقوية مهارات الإبداع والتفكير وتنمية القدرات الذاتية؛ ومن ثم ترتفع نسبة التمكن العلمي لدى الطلاب، وتصير العلوم لديهم بالسليقة والطبع، غير شاقة ولا متكلفة.

تشكيل لجان من شيوخ جامع الزيتونة لإصلاح الكتب الدراسية وانتقاء الأوفق والأجود منها بحيث يتم اختيار المراجع المتناسبة مع المرحلة الدراسية والعُمْرية للطلاب. ونتج عن ذلك استبعاد عدد كبير من الكتب القديمة. وربما كان ذلك من أسباب حنق بعض الشيوخ عليه ومعارضتهم لخطواته الإصلاحية.

الاهتمام بالمواد المغفل تدريسها أو التي قل الاهتمام بها مع أنها مقررة في خطة النظام الصادقي، فأحيا الشيخ تدريس مواد: الإنشاء والتاريخ والأدب والعلوم الطبيعية والحساب.

تقوية الأقسام العلمية بالمرحلة العالية في جامع الزيتونة من خلال تكثيف مواد التخصص لكل قسم، ولأجل ذلك فإن الشيخ ـ رحمه الله ـ وبمساعدة اللجان المشكلة راعَوا في القسم الشرعي: معرفة الأحكام الشرعية وأدلتها، وأصول العقيدة، ومقاصد الشريعة، وأسرار التنزيل، وتقوية ملكة الترجيح، ومعرفة طرق الاستدلال. ولذلك اختيرت كتب (شرح ابن دقيق العيد على أحاديث العمدة)، وكتاب (شرح العقائد النسفية)، وكتاب (أعلام الموقعين).

وأما في القسم الأدبي فتمت مراعاة معرفة الأدب الرفيع، وتربية الذوق، واتساع دائرة التفكير، وتقوية ملكة النقد، وتفهم اللغة ودقائق التعبير.

استخدام الوسائل التعلمية، حيث أمر بتزويد قاعات الدراسة بالسبورات، وقد كانت آنئذٍ وسيلة حديثة غير معهودة، وإلى جانب ذلك أخذ يحفز شيوخ الزيتونة على تنويع أساليب التدريس واستخدام الوسائل المجدية في التعليم.

توجيه المعلمين بجامع الزيتونة إلى التقليل من الإلقاء، والإكثار من التطبيقات، لتقوية ملكة الفهم والاستنتاج لدى التلاميذ؛ ومن ثم الاعتماد على قدراته في التحصيل العلمي والتثقيف العام.

تعديل نظام إدارة الفروع، حيث جعلها تابعة للإدارة المركزية في تونس العاصمة وألغى ارتباطها بالإدارات المحلية.

تحسين الأوضاع المعيشية للطلبة، فاستحدث مطابخ ببعض المدارس وفرت للطلاب وجبات الطعام الثلاث بمبالغ رمزية.

ولقد كان لهذه الخطوة أثر بالغ في تحسين ظروف الطلاب وتخفيف الأعباء المالية عنهم، وذلك من خلال تأمين المراجع العلمية، وقبول الأوقاف على دور العلم، ونحو ذلك.

الخاتمة

تأملت البحث بعد أن بلغ شاطئه، واستجمعت رؤياي حيال شخصية الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور رحمه الله، فارتسمت في مخيلتي شخصية فارعة القوام علما وفهما ودراية، عرفت مبتغاها منذ نعومة أظفارها، فرسمت لنفسها معالم طريق وعرة المسالك، غير أن الإخلاص ووضوح الرؤية وتحديد المقاصد مهدتها إلا قليلاً.

وإن كان ثمة من خطأ أو عثرة فهو شأن الإنسان غير المعصوم، وحسبه في ذلك أنه اجتهد، فهو دائر بإذن الله بين الأجر والأجرين.

لقد امتنع عن تقبل النمط التركي لقدمه، وعن المصري لأنه أوربي الوجهة، وهو قادر على الإفادة من أوربا مباشرة، وفي ذلك يقول: «وحيث رأينا الآن إخواننا المصريين يتسابقون مع الأمم الأوروباوية في ميادين التمدن، ويشاركونهم في سائر الفنون والصناعات، مستمدين تقدمهم من العلوم الدنيوية التي أخذها الأوروباويون من أسلافنا. فما يمنعنا أن نجاريهم فيما ينفعنا ولا يضر بديانتنا. بل يرفع عنا وعنها وصمة البعد عن مناهج التمدن، وتهمة عدم اللياقة بالأزمان الأخيرة»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ).

إن أخذه للنمط الأوربي كان ضمن ضوابط محددة أبرزها: المحافظة على نقاء وصفاء العلوم الإسلامية والعربية. و الممازجة بين النمط التنظيمي الأوربي، والمضمون الإسلامي والعربي النقي، فالترتيبات القانونية عملية إدارية بحته، لا تؤثر على العلوم الشرعية بالاختزال أو الإضعاف أو غير ذلك، ولا تمس المصلحة الوطنية؛ ولذا نجده

في أكثر من موقف كما تقدم يقف حجر عثرة أمام الراغبين في ذلك، وقد لخص موقفه هذا بحرصه على إعداد ناشئة«تزين مستقبلنا، وتُمجّد ماضينا»(ابن عاشور ١٤٢٧هـ). ومثل هذه النظرة صالحة ومفيدة حتى وقتنا الحاضر من حيث المنهج والمدلول العام.

ولقد خلصت من خلال سبري لأفكار وأعمال هذه الشخصية العلمية الفذة إلى جملة من النتائج أهمها:

الحاجة إلى إعداد علماء دعاة وإصلاحيين يتمتعون بذات الخصال التي اجتمعت للطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ ليقوموا بواجبهم في مواصلة العملية الدعوية والمشروعات الإصلاحية وفقا للأسس الشرعية ومقاصدها.

الإفادة من الأساليب الدعوية التي نبه إليها الشيخ الطاهر بن عاشور، وبخاصة أنه أشار إلى أساليب لم يتضمنها كثير من الكتب المتخصصة في المجال الدعوي.

تمازج الخبرات البشرية وتقبل نتاج الحضارات الأخرى معرفيا ومدنيا يثمران نتائج إيجابية ما دام الأمر منسجما مع روح الشريعة ومقاصدها.

وضوح الرؤية ومعرفة الواقع من أجود العناصر المعينة على تحقق المشاريع الدعوية والإصلاحية أو جُلّها.

ضرورة تطويع المعرفة وتيسيرها على المتعلمين الجادين، من خلال التدرج في التعليم، أو توفير المراجع المعدة إعدادا عاليا ومتقنا، بالإضافة إلى الترتيبات التي تحقق الانسجام بين الدارسين.

ولدي توصيات أختم بها، وهي:

الحديث عن العلماء يحتاج إلى تريث وتثبت، إلى جانب الخبرة والعلم، ولقد أشرت إلى أن الشيخ وُوجِه بالتجريح والاتهام نتيجة أطروحات لا تعدوا أن تكون خلافا فقهيا، أو تطبيقات تنظيمية هي الآن من بدهيات الحياة المعاصرة، وينخرط فيها كبار العلماء وصغار المتعلمين.

كما نحتاج إلى استنهاض نماذج مماثلة من العلماء في المجال الدعوي والإصلاحي، ذلك أن تجارب العلماء ذخيرة للمجتمع ولطالبي العلم على وجه الخصوص.

بالإضافة إلى أن الدعوة والإصلاح مشروعان تكامليان، يتطلبان جهودا متضافرة من أُوْلي العلم والاختصاص، وأوصي هنا بالأعمال البحثية المشتركة واللقاءات التشاورية الدائمة لتطوير الصالح -كما قال الشيخ الطاهر بن عاشور- أو إصلاح الفاسد.

وآخر دعوانا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحابته أجمعين.

المراجع

القرآن الكريم.

ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي، (١٤٢٢هـ) "زاد المسير"، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن باديس، عبدالحميد، (١٣٥٥هـ) مقالة بعنوان: "شيخ الإسلام" في جريدة البصائر، السنة الأولى، العدد ١٦، الجزائر، في ١٣٥٥/٢/٢هـ، (العدد ١٦، ص: ١، والعدد ١٧، ص: ١ – ٢).

ابن دريد، مُحَمَّد بن الحسين، (١٩٨٧م) "جمهرة اللغة"، تحقيق رمزي بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن سعد، مُحَمَّد، (١٤١٠هـ) "الطبقات الكبرى"، تحقيق مُحَمَّد عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن سيده، علي بن إسماعيل، (١٤١٧هـ) "المخصص"، تحقيق خليل جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر (١٤٢٧هـ) "أليس الصبح بقريب– التعليم العربي الإسلامي"، ط١، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس.

ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر، (١٩٨٤م)، "التحرير والتنوير"، د.ط، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله، (١٤١٢هـ) "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، تحقيق علي البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت.

ابن عطية، عبد الحق بن غالب، (١٤٢٢هـ) "المحرر الوجيز"، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن فارس، أحمد بن زكريا، (١٣٩٩هـ) "معجم مقاييس اللغة"، تحقيق عبد السلام هارون، د.ط، دار الفكر.

ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، (١٩٩٢م) "المعارف"، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (١٤٢٠هـ) "تفسير القرآن العظيم"، تحقيق سامي سلامة، ط٢، دار طيبة.

ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم، (١٤١٤هـ) "لسان العرب"، ط٣، دار صادر، بيروت.

أبو حسان، جمال، (١٤٣٠هـ) "الإمام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور"، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، العدد ٣ أ.

أبو حيان، مُحَمَّد بن يوسف (١٤٢٠هـ) البحر المحيط، تحقيق صدقي جميل، د.ط، دار الفكر، بيروت.

الأصفهاني، الحسين بن مُحَمَّد، (١٤١٢هـ) "المفردات في غريب القرآن"، تحقيق صفوان الداودي، ط١، دار القلم الشامية، دمشق – بيروت.

الألوري، آدم عبدالله، (٢٠١٢م)، تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم، ط٣ مكتبة وهبة للطباعة والنشر.

الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم، (١٤١٢هـ) " الزاهر في معاني كلمات الناس "، د.ط، تحقيق حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت.

باشا التونسي، خير الدين (١٢٨٤هـ) "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، ط١، مطبعة الدولة التونسية.

البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، (١٤٢٢هـ) "الصحيح"، تحقيق مُحَمَّد الناصر، ط١، دار طوق النجاة، بيروت.

البغوي، الحسين بن مسعود، (١٤١٧هـ) "معالم التنزيل"، تحقيق مُحَمَّد النمر وآخرون، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع.

البيانوني، مُحَمَّد أبو الفتح، (١٤١٥هـ) "المدخل إلى علم الدعوة"، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الثعلبي، أحمد بن مُحَمَّد، (١٤٢٢هـ)، "الكشف والبيان"، تحقيق أبي مُحَمَّد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الجوهري، إسماعيل بن حماد، (١٤٠٧هـ) "الصحاح"، تحقيق أحمد عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت.

الخطيب، عبدالكريم، (١٤٠٢هـ)، " الدعوة إلى الإسلام"، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.

الريس، عبدالله، (١٤٠٩هـ) " الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير"، رسالة ماجستير مقدمة في كلية أصول الدين بجامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الرياض.

الزبيدي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد، (١٣٠٦هـ)، "تاج العروس"، ط١، المطبعة الخيرية، مصر.

الزركشي، مُحَمَّد بن عبدالله، (١٣٧٦هـ) "البرهان في علوم القرآن"، تحقيق مُحَمَّد إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الزركلي، خير الدين، (١٩٨٤م)، "الأعلام"، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت.

الزمخشري، محمود بن عمر، (١٤٠٧هـ)، "الكشاف"، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت.

الزمرلي، الصادق، (١٩٨٦م) "أعلام تونسيون"، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، ط١، دار الغرب، بيروت، لبنان.

الزهراني، مشرف بن أحمد (١٤٣٠هـ) "أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور"، ط١، مؤسسة الريان، بيروت.

زين الدين الرازي، مُحَمَّد بن أبي بكر، (١٤٢٠هـ) "مختار الصحاح"، تحقيق يوسف مُحَمَّد، ط٥، المكتبة العصرية، بيروت.

الصحيح لابن حبان مُحَمَّد بن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ.

ضمرة، معن، (٢٠٠٥م) "الحوار في القرآن الكريم "، رسالة ماجستير في كلية أصول الدين بجامعة النجاح، فلسطين.

الطباع، إياد خالد، (٢٠٠٥) "مُحَمَّد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه"، ط١، دار القلم، دمشق.

الطبري، مُحَمَّد بن جرير، (١٤٢٠هـ) "جامع البيان في تأويل آي القرآن"، تحقيق أحمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

عاشور، مُحَمَّد العزيز، (١٩٩١م) "جامع الزيتونة المعْلَم ورجاله"، د.ط، دار سراس، تونس.

عبدالسلام، أحمد، (١٤٠٧هـ) "مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية"، ط١، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

العسكري، الحسن بن عبدالله، (١٤١٢هـ) "معجم الفروق اللغوية"، تحقيق بيت الله بيات وآخرون، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران.

الغالي، بلقاسم، (١٤١٧هـ) "من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره"، ط١، دار ابن حزم، بيروت.

الغالي، بلقاسم، (١٩٩٦م) "مُحَمَّد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره"، ط١، دار ابن حزم، بيروت.

فريد بك، مُحَمَّد، (١٤١٩هـ)، "تاريخ الدولة العلية العثمانية"، تحقيق إحسان حقي،ط١، دار النفائس، بيروت.

الفيروزابادي، مُحَمَّد بن يعقوب، (١٤٢٦هـ) "القاموس المحيط"، حقق بإشراف مُحَمَّد العرقسوسي، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت.

القشيري، عبدالكريم بن هوازن، (١٩٧٠م) "لطائف الإشارات"، تحقيق إبراهيم البسيوني، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

قطب، سيد، (١٤١٢هـ) "في ظلال القرآن"، ط١٧، دار الشروق، القاهرة.

الكفوي، أبوب بن موسى، (١٤١٩هـ) "الكليات"، عناية عدنان درويش ومُحَمَّد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

الكندري، عبدالله وعبد الدائم، مُحَمَّد، (١٤١٣هـ)، "مدخل إلى مناهج البحث العلمي في التربية والعلوم الإنسانية"، ط١، مكتبة الفلاح، الكويت.

محفوظ، علي، (١٣٧١هـ) "هداية المرشدين"، ط٥، دار الاعتصام، القاهرة.

محفوظ، مُحَمَّد، (١٩٩٤م) "تراجم المؤلفين التونسيين"، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الميساوي، مُحَمَّد، (٢٠٠١م) "مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية، للطاهر بن عاشور"، ط٢، دار النفائس، عمان، الأردن.

النحاس، أحمد بن مُحَمَّد، (١٤٢١هـ)، "إعراب القرآن"، عناية عبدالمنعم إبراهيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

الوكيل، مُحَمَّد السيد، (١٩٨٦م)، "أسس الدعوة وآداب الدعاة"، د.ط، دار دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

Islamic Dawa and Reform in the Writings of Mohamad Al-Tahir bin Ashour: An Applied Study of his Two Books: Al–Tahreer and Al–Tanweer (Liberation and Enlightrnment) and Alaisa (؟Al–Subhu bikareeb? (Isn't the Morning at Hand

Dr. Omar Abu Al–Majd Hussain Qasem Mohamad Al–Naimi
Faculty of Education - Salman bin Abdulaziz University

Abstract

In this paper I have studied sheik Mohamad Al-Taher bin Ashour as a prominent scholar who had a major impact in Al-Maghreb Al-Arabi and in the Islamic world at large. Specifically, I sought to highlight the two most important issues he was known for and had tackled at some length- namely, Al-Dawa (the call for Islam) and reform.

This has necessitated that the present study be divided into a preface introducing Taher bin Ashour and delineating the most salient features of his Dawi and reformist character. The first section of the study follows and is more theoretical. It deals with the conception of reform and dawa and reveals bin Ashour's most prominent theses in relation to both doctrines, along with what is unique to him, be it pertaining to Dawa approaches and techniques or to its jurisprudential verdict. The second, a more applied section, deals with Taher bin Ashour's reformist approaches in the educational field. It reveals his broad visionary horizon, his theoretical power and his applied endeavours. The conclusion includes the findings of the study, the most important points of which are: the significance of such pioneering figures as Taher bin Ashour in the twin realms of dawa and reform; the need to organize and facilitate the ways and means for serious Islamic scholars to learn and research, and the need to accept criticism and correction, since errors and mistakes in both dawa and reforms are possible and quite common. The most important recommendations are the need for patience and deliberation in criticizing reformers and the need for dawa and reform projects to be based on comprehensive, complementary efforts.

Key words:
Dawa, reform, culture, education.